الباب الرابع

السـفور

جاء فى لسان العرب فى مادة «سفر» أن أصل المادة هو الكشف، فإذا قيل: سَفَرت الريح الغيم عن وجه السماء سَفْرا فانسفر، فالمعنى فرقته. وسمى المسافر سافراً لكشفه قناع الكنّ عن وجهه، ومنازل الحضر عن مكانه، ومنزل الخفض عن نفسه، وبروزه إلى الأرض الفضاء. ويقال: سفرت أسفر سفوراً خرجت إلى السفر، فأنا سافر. وإذا ألقت المرأة نقابها قيل سفرت فهى سافر بغير هاء. وسفرت المرأة وجهها إذا كشفت النقاب عن وجهها تَسْفر سفوراً. وجاء فى موضع آخر: سفرت المرأة نقابها تسفره سفوراً فهى سافرة، جَلَتْه.

فالسفور هو كشف المرأة النقاب عن وجهها، ويقال: هى سافر أو سافرة. وأقصد بالسفور هنا ما هو أعم من كشف المرأة وجهها، فالمراد به كشفها عن عورتها الشرعية وتعريض مفاتنها للغير، وعدم تنفيذ الحجاب بمقوماته المذكورة فى موضعها فهو يشمل كشف العورة والاختلاط وما يتبع ذلك من لمس وكلام وغيرهما، وإن كان كشف المفاتن هو الظاهرة الواضحة فى السفور.

وقد جاء الإسلام، كما قدمنا، بنظام دقيق للحجاب، وكان لنساء النبى ﷺ مزيد عناية منه، وسار المسلمون على نهج الدين فى تنفيذ تعاليمه، وبخاصة فى أيامهم الأولى. ثم توالت السنون، وتنوعت نظم الحكم، وتنقلت عاصمة الدول الإسلامية بين المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة والآستانة.

وفى تلك العصور كان نساء الحكام فى أرفع المنازل من حيث الحجاب. وكان نساء المسلمين بعامة يلتزمنه فى الدائرة التى حددها الدين، وإن كان التشدد فيه قد أدى فى بعض العصور إلى بعض التقصير فى واجب المسلمين نحو المرأة، خصوصاً فى عهد الخلافة العثمانية باعتبارها إطاراً للصورة الإسلامية، فقد عرف فيها نظام الحريم، ونفذ بشدة بالغة مع مفارقات عجيبة.

وكان الأمراء والخاصة فى الدول التى تظلها الخلافة يقلدون الخلفاء فى هذا النهج، والناس على دين ملوكهم. وحدث أن اتصل الشرق بالغرب بوسائل مختلفة، ونفذ إلى البلاد الإسلامية بصيص من نور التحرر النسائى الذى لعب دوره فى أوروبا، فابتدأ الشرق يقلده، واندفع بالمرأة إلى الحياة الصاخبة التى نشهد آثارها فى هذه الأيام.

والظروف التى أدت إلى السفور فى البلاد الإسلامية تكاد تكون متشابهة، وإن كانت تتفاوت سبقًا وتخمسًا، ويلاحظ أن السفور قد حدث فى البيئات المثقفة أولاً، أو فى المدن الكبيرة، ثم تعداها إلى البيئات الأخرى، وانتقل إلى المدن الصغرى والقرى، ونفذ إلى هذه الأماكن بشكل فردى أولا، ثم أخذ شكلاً جماعيًا، حتى عد فى بعض المدن تقليداً عاديًا وعرفًا جاريًا، ترمى فيه المتحجبة بالتأخر والرجعية والجمود.

ورأينا من نكسة الفكر أن الساترة لساقيها وذراعيها، مع كشف رأسها، تعد محتشمة بالنسبة إلى الحاسرة عن ركبتها ونحرها وما فوق ذلك. فالحشمة عندهم شيء نسبى، وهى فى نظر الدين بعيدة عن حقيقة الحجاب.

وسيكون حديثنا فى هذا الباب عن أسباب السفور وتاريخ الدعوة إليه، وعن آثاره وكيف نعالجه، وسنرد على الشبه التى وجهها المجددون إلى تشريع الحجاب.

* * *

الفصل الأول

أسباب السفور

السفور ، كما قدمنا ، خروج على ما وضعه الله من تشريع الحجاب، فهو معصية، والمعاصي، في أغلب أحوالها، بل في جميعها. تلبية لنداء الغريزة، ووقوع تحت تأثير الشهوة. والشرائع تستهدف بنظمها مراقبة الغرائز، وتحديد مساراتها، وتوجيه نشاطها إلى الخير. فإذا كان الإنسان مؤمنًا بالله، مطمئنًا لعدالة التشريع، خائفًا من المعصية استقام أمره، وسيطر تدينه على غرائزه.

وسفور المرأة مظهر لنشاط الغريزة الجنسية وانحرافها، وهو في أول أمره، شأن كل عصيان، يصحبه شيء من الحذر، لأنه خروج على القيود المفروضة والعرف المألوف. فإذا وجدت المرأة السافر أن غيرها يشاركها معصيتها قل حياؤها وحرجها، وإذا رأت ما يشجع عليه استهانت بالعرف والدين ومضت في غوايتها حتى يأتي يوم يعد فيه السفور شيئًا عاديًا، بل يتطور الأمر إلى الدفاع عنه وتبريره،وجعله هو القاعدة الأصلية، والحجاب هو الشذوذ الخارج عليها،بمعنى أن يصير المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، بل أن يُدْعَى إلى المنكر وينهى عن المعروف.

وللسفور أسباب تدفع إليه دفعًا، وأسباب تشجعه وتقويه، وكلها نابعة من عصيان الله ومن اتباع الهوى. متفرعة عنه مستمدة وجودها وقوتها منه.

فمن الأسباب الدافعة إليه: سوء فهم الدين أو الجهل بالمفاهيم الصحيحة للدين. وعدم التوفيق في تنفيذ تعليم الدين عن الحجاب، وما نتج عنهما من الكبت الذي عانت منه المرأة، إلى جانب التقليد لغيرها من السافرات الأجنبيات بالذات.

ومن الأسباب المشجعة عليه، ضعف التدين الذي أنتج ضعف مقاومة الفساد، ووجود دعاة له تبرره وتدافع عنه، ولنتكلم على هذه العوامل بشيء من التفصيل فنقول:

أولاً – سوء الفهم لتعاليم الدين وسوء تطبيقها :

الدين الإسلامى دين سمح، ودين التوسط والاعتدال، يتناسب مع الفطرة فى كونها مزيجًا من روح ومادة، وعقل وغريزة، فهو يعمل على وضع كل منهما فى موضعه الصحيح، وعلى تعاونهما فى إخصاب الحياة بالخير، والتوفيق بين مطالبهما فى حكمة وعدل.

والغريزة الجنسية لها نشاطها المادى المعروف، والعنصر الروحى له مظاهره، والحجاب المشروع ترويض للنشاط المادى ليلتقى مع النشاط الروحى، دون طغيان واحد منهما على الآخر، فإن الحياة الصحيحة المحققة لخلافة الإنسان فى الأرض تحتاج إلى كل منهما ولا تستغنى عن أحدهما، والشرع لا يعدو أن يكون تنظيمًا أو تنسيقًا بينهما فى مجال العمل للخير.

وقد فهم بعض الناس أن تشريع الحجاب وقف لنشاط الغريزة وقضاء عليه، وحرب شعواء على مطالب البدن ليخلو الجو للروح فتنفرد وحدها بالنشاط. وهو فهم خطأ جرهم إلى الانتكاس فى كثير من أفكارهم، وإلى ارتكاب الشطط فى كثير من تصرفاتهم.

إن الاعتقاد بأن المرأة خلقت للمتعة فقط، وإن الغيرة عليها واجبة بكل قوة اعتقاد خطأ، فإن الدين، وإن كان قد جعل منها متعة للرجل، قد جعل لها مهمة أخرى للنهوض بالمجتمع الصغير فى أسرتها، والمجتمع الكبير الذى تعيش فيه. فلا بد لها من التعلم لتفتح عينها على هذا الكون وتعرف وضعها فيه، وتشارك فى حدود اختصاصها فى عمل الخير وإخصاب الحياة بكل ما يشيع فيها النمو والازدهار.

والدين وإن كان يحمد الغيرة على المرأة، ذم التطرف فيها وسوء تطبيقها، والعرض وإن كان يؤخذ فيه بالأحوط، إلا أن التغالى فى ذلك يقلب الشىء إلى ضده. فلابد من مراعاة حكمة التشريع، واعتبار المقاصد العليا لكل ما يخططه الدين.

فى ظل الفهم الخطأ للدين منعت المرأة من إبداء رأيها فى الزواج، بل فى رعاية الأسرة والأولاد، وكان لا يسمح برؤية العروس حتى يوم الزفاف، وفى ظل الفهم الخطأ للغيرة على المرأة تأثر فن المعمار، فكان البيت يحتوى على «سلاملك وحرملك» أى على قسمين، قسم خاص بالمقابلات لرب البيت وقسم خاص بالحريم. وكان نظام المشربيات التى ترى منها المرأة من هو خارج البيت، ولا يراها أحد خارجه، وكان حرص بعض البلاد على أن تكون البيوت من طابق واحد، بل على ألا تكون بها نوافذ، وإن كانت فهى ضيقة وفى أعلى مكان فى الجدار...

وكان من سوء فهم الدين والشطط فى تطبيقه صرامة الخلفاء العثمانيين فى تطبيق الحجاب على المرأة، وابتداع نظام الحريم، الذين أرادوا به التشبه بالنبى ﷺ فى تحريم رؤية نسائه حتى وهن فى كامل الستر والحشمة، واشتطوا فى هذا التشبه ناسين الجوانب الإنسانية والدينية التى كان يعامل بها الرسول زوجاته، ويعامل بها المرأة المسلمة بوجه عام. وإليك كلمة عن هذا الحريم:

إن كلمة الحريم التى ترددها الألسن فى عصرنا الحديث، والتى اشتهر بها الأتراك، كلمة مصدرها عربى، ملاحظ فيه المنع والتحريم مع القداسة والتكريم، كالبيت العتيق الذى يوصف بالحرام والمحرَّم، وقد أطلق هذا اللفظ على البيت المخصص لسكن النساء فى البيوت. واتسع إطلاقه حتى أطلق على النساء أنفسهن.

لم يكن هذا المعنى بتطبيقه المميز له موجوداً فى عصر النبى ﷺ، لكن عندما تولى الحكم معاوية بن أبى سفيان، وبنى قصر الخضراء فى دمشق، خصص جناحاً فيه لسكن النساء، فكان هذا أول حجر وضع فى بناء نظام الحريم. وجاء ابنه يزيد فأكثر من شراء الجوارى وبناء القصور لهن من أجل متعته بهن، وانتهى عهد الفتوح الإسلامية وشغل الولاة بالترف، فكثر اقتناء الجوارى وبنيت لهن المساكن الفاخرة. وكانت كل جارية تسعى لامتلاك قلب الخليفة أو الوالى، فحصل التنافس ثم الغيرة، ثم القتل بالسم أو الخنجر، وأصبح الحكم كله فى يد النساء والموالى.

ولما آلت الخلافة إلى العثمانيين ترفعوا عن الزواج من نساء الشعب، فاستقدموا الشركسيات واليونانيات وغيرهن، وتزوجوهن وتمتعوا بهن. وكانت عادة السلاطين الأول ألا يتزوجوا إلا من أميرات مسلمات أو نصرانيات. وألا يجمعوا فى عصمتهم إلا الحلائل الأربع اللاتى أباحهن الشرع. وكان آخر من سار على هذا النهج السلطان محمد الفاتح فى القرن الخامس عشر الميلادى.

أما من جاء بعده من السلاطين فقد هجروا عادة الزواج، واكتفوا بالتسرى بالإماء، لا يتخذون منهن أكثر من أربع فى أول الأمر، ويعاملونهن معاملة الزوجات، على الرغم من عدم وجود عقد زواج بينهم وبينهن، كما يقول نبيه عاقل «مجلة العربى عدد ٦٢ ص١١٦».

ويقال: إن السلاطين كانوا لا يتقيدون بشروط الزواج الشرعى، بل يكفى أن يقول أحدهم: إن فلانة زوجتى فتكون زوجته. ويقال: إن بايزيد الأول المتوفى سنة ١٤٠٣هـ هو أول من تزوج على شروط الشريعة، كما يقول حسين مجيب المصرى فى كتابه «فارسيات وتركيات».

ويقول أيضاً: لم يكن عندهم ملكة فى الدولة التركية، لكن أم الملك هى المعروفة بانتساب الخليفة إليها، لأنها واحدة، أما غيرها فكثير، وتسمى «تاج المستورات». ولا يصح المثول بين يديها إلا بعد الاستئذان والاطمئنان إلى رضاها، وكان الواقف أمامها يسبل طرفه، ويحنى صدره، ويضع يديه عليه. وكان لكل زوجة حريم وحاشية تسهر على خدمتها. وكثيراً ما يغشى السلطان الحريم، فيجلس على كرسى، وتقدم له القهوة جوار فاتنات، يسمى أحسنهن «كوزدة» وتكون هى المحظية.

وللحريم رئيسة تسمى «خازندار أوستا» وهى فى المحل الثانى بعد الأم، ولم يكن من السهل إدارة الحريم كما يجب، فرئيسة حريم مراد الثالث كان تحت حراستها أربعون محظية ومائة طفل وخمسمائة جارية، وكان من واجبها أيضاً أن تكون على اتصال بشئون الملك فى الخارج، ومراقبة ما يجرى فى الحريم من الداخل.

ومما يذكر بهذه المناسبة، أن مستر «ليونونس» تحدث فى روايته عن الحريم، المطبوعة فى «بوسطن» سنة ١٨٧٢م عن مدينة «ننغ حرم» أى النساء المبرقعات فى قصبة «بنكوك» جاء فيها: إنه لا يسكن فى تلك المدينة إلا نساء وأولاد. وبها منازل النساء من العائلة الملوكية وزوجات الملك وسراريه وقريباته، مع جوار كثيرة وحشم. ولتلك المدينة أنظمة مخصوصة. ولها قاضيات وحارسات وضابطات وسجانات وسيافات وسمسارات ومعلمات وصانعات من جميع أنواع الصناعة. ولا يدخلها أحد إلا الملك والكهنة الذين يسمح لهم بالدخول كل صباح. ويقام عليهن حارسات منهن. والجوارى يسمح لهن بالخروج من المدينة لزيارة أزواجهن. أو لقضاء أشغال لسيداتهن. ولا يسمح للسيدات أن يخرجن منها إلا من الطرق المستورة المؤدية إلى القصور والهياكل والجنائن. ويقال: إن عدد النساء المحجوبات على هذا المنوال نحو تسعة آلاف امرأة، وهذه المدينة مثال للحريم ليس حريم فى الدنيا يعادله فى اتساع دائرته وصرامة قوانينه وحسن متنزهاته «دائرة معارف البستانى – مادة حريم» جاء فى أهرام ١ / ٦ / ١٩٨١م تحت عنوان: من ٧٥ سنة ما يأتى:

القدس: «الرجاء محمد» زار القدس فى الأسبوع الماضى أحد أمراء الهند «الرجاء محمد» ومعه أربع من نسائه وحاشيته وعددها ٧٥ شخصا. ولما وصل إلى «يافا» أقام على ظهر الباخرة خمسة أيام. ولما أراد النزول للبر أمر بتغطية السلم وتغطية الزوارق وتغطية المكان الذى أنشىء للنزول حتى لا يراه أحد، وهكذا فعل بالعربات والسكة الحديدية. حتى أنه لم يرض أن يكون الحوذية من غير رجاله. والخلاصة أن الرجل دخل القدس وخرج منها دون أن تقع عليه وعلى رجاله أشعتها، ودون أن تقع عين نسائه على أرضها «الأهرام ١ / ٦ / ١٩٠٦».

وكان لأولياء العهد حريم خاص وسط الحريم العام، فكان فى سجن داخل السجن. ولا يجوز لأحد أن يخاطبه إلا بإذن السلطان. وكان بعض أولياء العهد يأبون مبارحة حريمهم إذا فتح لهم الباب لتنسم الحرية، خشية أن يكون فى الأمر دسيسة من السلطان، يحاول بها قتلهم. وكان أغلبهم لا يغادرون حريمهم إلا إذا

جاءوا لهم بجثة السلطان الميت، وهنا يحتل حريمه، ويطرد حريم السلطان الميت إلى سراى قديم.

لقد كان الحريم مرتعًا للكيد والحسد، لأنه لا عمل لمن فيه إلا اجتذاب قلب السلطان. وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كان تأثير النساء على السلاطين شديداً، حتى إن الإيطاليات والصقليات كن يعرضن أنفسهن للبيع اختياراً لإثارة الدسائس فى الحريم. وهذه «يافا» الإيطالية جعلت السلطان يعدل عن حرب البندقية، وكانت على صلة بكاترين دى ميتشى. وهذه أيضًا «روكسلان» الروسية، قتل بسبب كيدها وزراء وأمراء. وسليمان الأول أعجب بفتى يونانى، لأنه يجيد العزف على الكمان، فقربه حتى جعله وزيره الأكبر، وسماه «إبراهيم باشا» فلم تطق «روكسلان» الروسية منافسته لها، فأغرت السلطان بقتله. بل جعلته يقتل ابنه مصطفى، لأنه من امرأة غيرها.

وإذا سخط السلطان على إحداهن وضعت فى كيس، وثقلت بحجر، ورميت فى البحر، واستمر ذلك إلى زمن متأخر. وفى ذلك يقول الشاعر «ولى الدين يكن» من قصيدة فى السلطان عبد الحميد:

لله أجساد ثوت بين الجنادل والصخور
باتت على خشن الثرى من بعد مضجعها الوثير
كانت زهور شبيبة لهفى على تلك الزهور

وتقول «طلعت الرفاعى»: والتاريخ العثمانى يحكى قصة اليهودية المسماة «استير كيرا» التى قوى نفوذها فى البلاط العثمانى فى أواسط القرن السادس عشر لمدة نصف قرن.

ففى سنة ١٥٤٩م أصبحت ملتزمة لكافة جمارك الاستانة، حتى امتصت خزائن الدولة. وعملت وسيطة للوظائف مقابل رشوة، ولعبت دوراً كبيراً فى حياة مراد الثالث، مستعينة بيهودية أخرى. وعن طريقها كثرت النقود المزيفة، وشكاها السباعيون فى السنة الخامسة من جلوس السلطان محمد الثالث إلى

شيخ الإسلام (صنع الله أفندى) فهربت، ولكن قبضوا عليها فى دار يهودى، وقطعوها إربًا، وعلقوا لحمها على الأشجار للعبرة.

ويوضح هذا الكلام إسماعيل الشطى «مجلة المجتمع الكويتية فى ٢٠/٨/١٩٧٤م) فيقول: إن «استير كيرا» اليهودية الفاتنة قوى شأنها فى عهد سليم الثانى بواسطة عشيقته «نوربانو» اليهودية التى سيطرت عليه حتى أغرته بقتل أبناء سليمان القانونى وأحفاده فى مهدهم، بل ساعدت على عتق جميع المماليك الذين هم من أصل فرنسى.

وزاد نفوذ «استير كيرا» فى عهد مراد الثالث بن «نوربانو» بسبب خدمتها لمعشوقته البندقية «يافا» المشهورة فى السراى باسم «صافية سلطان». وقد وصف «يوسف كوهين» أحد المحررين اليهود إذ ذاك (استير كيرا) بأنها المرأة التى يسجد لها كبراء الدولة، واستخدمتها «يافا» فى التجسس، واستفادت منها كذلك فى زمن السلطان محمد الثالث الذى تولى بعد مراد الثالث، الذى قتل جميع أخوته الذكور وعددهم تسعة عشر، وأغرق النساء الحبالى. وكانت نهايتها إحراقها مقطعة فى ميدان «أيت» كما أحرقوا ابنها الأكبر «إيليا» أما ابنها يوسف فقد أسلم فنجاه إسلامه.

وهكذا ظل الحريم يتصرف فى شئون الدولة، والنساء يحكمن من خلف الستار حتى تولى «الباديشاه عبد الحميد خان» ساكن قصر «يلدز». وتتابع الأميرة «جويدان» فى مذكراتها عن الحريم فتقول:

إن الجوارى فى حريم مصر لسن إلا خادمات تسيطر عليهن امرأة هى زوجة السيد أو أمه أو رئيسة الجوارى، وكانت صاحبة السلطة تحرم على الجارية أن تبدو جميلة أمام سيدها بدافع الغيرة. وتفعل الأم ذلك حرصًا على ألا يتزوج ابنها من جارية. وتفعل رئيسة الجوارى ذلك أيضًا طمعًا فى أن تصبح هى السيدة.

وكلما علا شأن البيوت زاد عدد الجوارى فيها، لأن التقاليد فى الحريم المصرى تقضى بألا تقوم السيدة بعمل ما، وإن كانت السيدة «هانم أفندى» ترى

فى الخادمات اللاتى يحضرن الحمام والملابس للسيد خطراً، لكثرة احتكاكهن بالبيك أو الباشا، ولكى تأمن شرهن كانت تغدق عليهن الهدايا لكسب مودتهن، أو تنزل بهن سخطها لتجعلهن على حذر منها. ولكن النتيجة فى كلتا الحالتين غير مضمونة. ولهذا كان بعض السيدات يقمن بخدمة أزواجهن بأنفسهن، إما بدافع الحب وإما بدافع الغيرة.

ولا يكاد الحريم فى مصر يختلف عنه فى غيرها، ولجهل نساء الحريم كن يؤمن بالخرافات، ويعتقدن فى السحر، وبخاصة فيما يحلب قلب الأسياد، أو يوقع الشر بالمنافسات، ولم يكن مسموحاً للطبيب أن يعود الحريم. فكان مرضى الحريم يداوين بطب التجارب، فإذا اشتد الخطر جاء الطبيب، ولا يسمح له برؤية المريضة شخصياً، والكشف عليها، بل يتولى أحد الأغوات الترجمة بينهما، فيصفون للطبيب أوجاعها وما تحس به.

أما التعليم فكان حظ الصبيان أوفر منه بالنسبة للبنات قعيدات البيوت، ففى الطبقة المتوسطة يرسلون الأولاد إلى المدرسة، وفى الطبقات العليا يرسلونهم إلى أوروبا للدراسة، أو يؤتى لهم بمعلمة أفرنجية لتعلمهم فى البيوت. وتتدخل الأم، على الرغم من جهلها، فى هذه الدراسة، وتضطر المعلمات أحياناً إلى هجر البيت فتأتى غيرها، ويحصل لها مثل ما حصل للأولى، وهنا ييأس رب البيت، فلا يأتى بمعلمات، ويحرم الأولاد من التعليم، وإذا أسند الدرس إلى معلم سعى السعاة إلى سيدهم، وطعنوا فى كفايته وأخلاقه.

هذا هو الحريم الذى أسيء استعماله. ولصرامة التقاليد التى فيه كانت نفوس النساء تغلى وتطلب النور والحياة، فلما وجدت الدعوة إلى السفور كان أول من شجعها نساء السلاطين وكبار الرجال، وكن إذا سافرن لزيارة قطر أجنبى أسرفن فى السفور عند غيبة الرقيب[1].

---

(١) أكثر هذه المعلومات مأخوذ من مذكرات الأميرة «جويدان» زوجة الخديوى عباس حلمى الثانى، ومن كتاب «فارسيات وتركيات» لحسين مجيب المصرى، ومن مقال نبيه العاقل بمجلة العربى عدد ٦٢ ص١١٦، ومن دائرة معارف البستانى.

هذا، وتوجد فى هذه الأيام صور من الحريم تتمثل فى حجز المرأة فى البيت حتى الموت، لا يتصل بها إلا زوجها، بل يحرم على أقاربها المحارم أن يزوروها، ولا تخرج من البيت إلا عند موتها، فإذا اضطرت إلى الخروج كان ذلك ليلاً وفى حراسة مشددة، وهى بالطبع لا تتعلم ولا ترى النور ولا تذهب للتداوى، بل هى ممنوعة من السفر إلى مكان آخر.

والمرأة فى مثل هذا الجو مسجونة فى سجن مظلم، محرومة من كل نور حسى ومعنوى، وما ذلك من الدين فى شىء، وهو ناشئ عن سوء فهم الدين والتطرف فى تطبيقه، ومعروف أن هذه المعاملة القاسية تجعل من اليسير انفجار المرأة واندفاعها للتحرر من كل قيد عندما تسنح الفرصة، وهذا ما حدث فى تشجيع التحرر من مصر، على ما سيأتى ذكره.

إن حجب المرأة بهذه الطريقة ليس تكميلاً للمرأة، بل تنقيصًا لها وحطًا من قدرها، فلا بد من إتاحة الفرصة لها لتتعلم، حتى تكون فى سلوكها على وعى، والوعى يحدد الفضائل ويرسم الطريق إليها، وأما أن تكون هذه الطقوس والاجراءات وسيلة لخلق الفضيلة فى نفس المرأة فذلك ما لا يسلم. يقول الشاعر:

قالوا: الحجاب، فقلت: تلك سخافة — أرأيتمو شمس الضحى تتحجب؟
قولوا: الفضيلة، لا تقولوا غيرها — فسلاحها عند الدفاع مجرب
لا خير فى حجب بغير فضيلة — فى الليل أكثر ما تدب العقرب[1]

إن حرمان المرأة من التعليم، حتى لو كانت فى بيتها، مبعثه الغيرة المتطرفة عليها، مع أن العلماء أجازوا نظر الأجنبى إلى المرأة التى يعلمها، سواء فى ذلك العلم الواجب والمندوب[2].

إن حرمانها من التعليم والمباحات الأخرى كان له أثره فى جهل الأمهات بواجب الأولاد وجهل المرأة بواجبات الزوجية والواجبات الأخرى، وفى شيوع الخرافات وتسلط الأفكار السيئة، وكان ذلك أيضًا من أسباب اتهام الدين بالجمود، وعدم صلاحيته لتطوير الحياة.

---

(١) شاعر رجعى «مجلة الأزهر مجلد ١٨ ص٨٧٦».

(٢) شرح الخطيب على متن أبى شجاع فى فقه الشافعية ج٢ ص١٢١، ١٣٧.

ثانيًا - الكبت :

هذا السبب في الحقيقة. أثر من آثار السبب السابق، فهو نتيجة المعاملة الشاذة عند تطبيق الدين الذى أسيء فهمه. والكبت، كما يقول علماء التربية، يولد الانفجار، ومنع الشيء يغرى به كما يقول الشاعر:

منعت شيئًا فأكثرت الولوع به وحَبَّ شيء إلى الإنسان ما منعا

وترويض الغرائز، عن طريق إيجاد بعض المنافذ لها، يحول دون انفجارها. وهذا الكبت كان سببًا في قيام دعوات إصلاحية، ترد على الاتهامات الموجهة إلى الدين من خلال هذه المعاملة القاسية، وتمادت هذه الدعوات في ردها على هذا النقد، وبيان مرونة الدين، تماديًا أدى إلى الانفلات من القيد والتحرر في الرأى وفي التطبيق، وتأويل نصوص الدين حتى توافق آراءهم التحررية، وذلك لإرضاء الأطراف المعترضة.

يقول المودودى: لقد استعمر الغرب الشرق والإسلام فانتبه المسلمون للنهوض، ورأوا أن يقلدوا غيرهم في الفكر والعقيدة والخلق والنظام العام للحياة، وبدءوا يردون على شبهات الغرب على الدين، بتفسيره ليوافق ما عندهم، فطعنوا في الجهاد وحاول المسلمون التملص منه، وطعنوا في الرق وقالوا: إن الإسلام يحرمه، وطعنوا في تعدد الزوجات، فأولنا في الآيات لتوافقهم، وقالوا بالمساواة بين الجنسين فوافقناهم بأنه أصل دعوتنا، وطعنوا في قوانين الزواج والطلاق، فقمنا بتعديلها، ولما عابوا على الإسلام بأنه عدو الفنون قلنا: بل الإسلام يشجع الفنون، وفي هذا الجو نشأت مسألة الحجاب، فحاول البعض أن يرتكن على بعض أقوال الفقهاء ليجيز شهودها للحرب وخروجها للأسواق والتعلم. ونادوا بتحرير المرأة.

ثالثًا - التقليد :

وأعنى بالتقليد أمرين، أولهما تقليد المسلمة لغيرها من نساء الكفار، سواء كن يعشن معها في بيئتها، أم كن أجنبيات عنها، كالغربيات بالنسبة إلى

الشرقيات، وثانيهما تقليد الصغار للكبار، ونحن نعلم أثر التقليد فى التربية والسلوك بوجه عام، بل أثره فى العقائد والمفاهيم، وتوضيح ذلك فى الجزء الرابع إن شاء الله عند البحث عن حقوق الأولاد.

(أ) لقد ظلت المرأة المسلمة محافظة على الحجاب قرونًا طويلة، لم يشذ منهن إلا القليل اللائى كان المجتمع يعدهن شاذات، ويلقين منه إنكارًا شديدًا، رأينا صداه فى كتب الفقه والأخلاق التى تنعى على تبرج المرأة وخروجها على تقاليد الحجاب، وكانت السلطات المسئولة تتعاون مع الشعب فى إنكار المنكر بوجه عام، وذلك عندما كان الدين مسيطرًا على الحياة فى نظامها السياسى والاجتماعى وسائر النظم.

ولم يظهر السفور فى المجتمع الإسلامى بشكل واضح إلا بعد احتكاك الغرب بالشرق، عن طريق الحروب والتجارة والسياحة وغيرها، حيث رؤيت الأجنبيات سافرات، أو نقلت أخبارهن إلى المسلمات، وكانت أخبارًا فى مبدأ أمرها بالذات، يمجها الذوق الإسلامى بوجه عام.

ومعلوم أن المرأة الغربية سبقت المرأة الشرقية فى عدم الاهتمام بالحجاب، وفى ا لتمتع بالحرية الواسعة، فى الوقت الذى كانت فيه الشرقية، وبالأخص المرأة المسلمة، تعانى من التخلف والضيق بالمعاملة السيئة على غير الصورة المشروعة عنتًا كبيرًا، الأمر الذى نتج عنه حرمانها من حقوق كفلها الدين كالتعليم مثلاً، وولد فيها كبتًا حاولت التملص منه بأى منفذ من المنافذ، حتى لو كان محرمًا، مع أن المنافذ المشروعة كثيرة لو فهمها القائمون على أمرهن. ووجدت فى نفسها ثورة عارمة على هذا الحرمان، وتاقت إلى التمتع بما يتمتع به غيرها من النساء.

ولقد كانت الحملة الفرنسية على مصر والشرق موقدة الشعلة فى تمرد المرأة على وضعها الذى تعيشه، وظهرت منها بعض تصرفات شاذة خرجت بها على التقاليد الشرقية، بل وعلى الحدود الدينية، وبعد انسحاب الفرنسيين عادت الأمور إلى ما كانت عليه، وإن كانوا قد تركوا شرخًا فى زجاج الأدب الإسلامى

عند المرأة، ثم جاء الاحتلال الانجليزي والاستعمار الغربى بوجه عام، وبدأت المعركة بين القديم والجديد، بين التقاليد الشرقية الإسلامية وبين البدع الغربية الاستعمارية، وكانت معركة المرأة من أهم المعارك التى وجهت إليها عناية كبيرة.

يروى لنا الجبرتى شيئًا عن أثر الاحتلال الفرنسى لمصر، فى إفساد النساء والاستهانة بعفافهن والثورة على الحجاب، فيذكر أن نساء مصر كن قبل دخول الفرنسيين محجبات. ويصف أسرة الشرايبى بقوله: لا تخرج من بيتهم امرأة إلا إلى المقبرة، فإذا عملوا عرسا أولموا الولائم، وأطعموا الفقراء والقراء على نسق اعتادوه، وتنزل العروس من حريم أبيها إلى مكان زوجها بالنساء الخلص.

ثم يصف الحال بعد وجود الفرنسيين فيقول: لما حضر الفرنسيس إلى مصر، ومع البعض منهم نساؤهم، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم، وهن حاسرات الوجوه، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير، يسوقونها سوقًا عنيفًا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة. فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن. «مختار الجبرتى ج٤ ص٤٢٣».

وطالما نعى الجبرتى على الفرنسيين شدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن، وعدم مخالفة هواهن، ولو شتمنهم أو ضربنهم بتاسومتهن، حذائهن، ويقول: ومما كان يزيد فى النكاية أن ضباط الاخطاط كانوا يتزوجون بالمسلمات من بنات الأعيان، فتقبل المسلمات الزواج رغبة فى سلطانهم ونوالهم، فيظهر الزوج حالة العقد الإسلام، وينطق بالشهادتين، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها، وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها، وأمامها القواسة والخدم، وبأيديهم العصى، بل تعدى إلى الجوارى السود، فإنهم لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجًا، فرادى وأزواجًا، فنططن الحيطان، وتسلقن إليهم الجدران... «ج٤ ص٤٢٤ مختار الجبرتى»، وجاء فى ص٤٥٤ إفسادهم لبنت الشيخ البكرى، وتبرؤ والدها منها،

والإذن بقتلها، وكذلك «هوى» زوجة إسماعيل الكاشف التى تزوجها نقولا القبطان، وقتلها عندما عثر عليها[1].

وفى مذكرات الأميرة «جويدان» زوج الخديوى عباس الثانى، تحدثنا عن أحسن الملابس التى تجلب من باريس، وكيف كان نساء الأمراء يسافرن إلى أوروبا ويتمتعن بما شاء لهن التمتع به، فإذا رجعن إلى بلادهن ألزمن حدود الحريم وطقوسه القاسية.

ويذكر الرحالة «أسامة بن منقذ» المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) عن الصليبيين أنهم يبيحون مخالطة المرأة للرجال والتصادق معهم مع علم زوجها، وربما انتحى بها الصديق فيكلمها وزوجها ينتظر، فإذا طال الحديث تركها ومضى هو، وهى مع الصديق.

وكما أثرت المشاهدة على المرأة الشرقية أثرت فيها كتب الغرب والبعثات التى بعثتها الدول إلى أوروبا، وعادت محملة بالآراء والأفكار التحررية، مع الاجتهاد فى الدعوة إلى تطبيقها فى بلادنا، ومن تحمس منهم لنزع الحجاب كان يظهر فى كلامه طابع التقليد عندما يستشهد على رأيه، معرضًا عن الدين ونصوصه وأحكامه، كما أن المستعمرين والأجانب عمومًا كتبوا عن حالة المرأة الشرقية، ناعين إهمال تعليمها، ناقدين شيوع الحجاب وصرامته، ناسبين إليه كل تأخر يصيب المرأة والمجتمع، على ما سيأتى بيانه. ومن هؤلاء الكتاب «إدوارد وليم لين» الذى كتب عن أخلاق المصريين وعاداتهم بين سنتى ١٨٢٥، ١٨٣٥هـ.

(ب) أما تقليد الصغار للكبار فهو واضح فى محاولة التشبه بذوى المنزلة الكبيرة، لحاقًا بهم فى شرفهم، أو احتماء بهم فى سلوكهم، وقد لاحظنا أن السفور نبت أولا فى البيوت الكبيرة وعند الشخصيات المشهورة، من الحكام والأعيان،وغيرهم ممن اختلطوا بالأجانب وشاهدوا أحوال نسائهم أوقرأوا عنهن.

---

(١) اقرأ: عبد الرحمن الجبرتى، لخليل شيبوب.

والناس، كما هو معروف، على دين ملوكهم، وهنا تسارع النسوة إلى تقليد نسائهم بشعور من الاطمئنان إلى عدم النقد، والاعتزاز بالتشبه بالكبار.

ورأينا في أيامنا الحاضرة، أن بعض البلاد ما يزال فيها التقليد القديم، وهو الحجاب، مطبقاً بصرامة، وأن المجددين المتحررين بحثوا في الوسيلة الفعالة لتطوير المرأة والانتقال بها إلى الحياة الجديدة، فما رأوا أجدى من أن تكون قدوتها في ذلك زوجة حاكم الإقليم أو كبير المنطقة، فهي إذا سفرت وغشيت المجتمعات قلدها بقية النساء. وكان أولهن زوجات الملتصقين بهذا الحاكم أو الكبير في العمل، ثم سرت العدوى كالموجة التي يحدثها الحجر حين يرمى في الماء، وهذا أثر من آثار مركب النقص الذي تنطوي عليه جوانح المرأة بالقياس إلى غيرها ممن ترى فيهن مثلها الأعلى. ويشاهد هذا في تقليد البنت لأمها، والتلميذة لمدرستها، والطبقات المتوسطة للطبقات العالية، وفي تقليد أهل القرى والمدن الصغيرة للمدن الكبيرة.. وهكذا. فرأينا مثلاً بعض النساء في القرى أو المدن الصغيرة التي تحافظ على الحجاب، عندما يسافرن إلى العاصمة الكبيرة ينزعن الحجاب ويقلدن عامة النساء حتى لا يكدن يميزن عنهن، فإذا عادت إحداهن إلى بلدها لزمت الحجاب حتى قبل أن تصل، وهي تتمنى إن لم تكن قد عادت لتبقى في جو المتعة التي تهفو إليها بعيداً عن عيون الناقدين.

ولعل مما يبرز أثر التقليد في الأخلاق، ما نقل عن «فتيات الجيشا» في اليابان، وكيف كانت خدمتهن للضيوف ذات تقاليد مرعية، وإن كانت من وجهة نظر الإسلام مرفوضة، إلا أن الاحتلال الأمريكي خرج بهذا التقليد عن آدابه الأولى التي كانت تتلقاها الفتاة لمدة عشر سنوات حتى تصلح لممارسة هذا العمل، فأصبحت بعد الاحتلال تمارسه بعد دراسة لا تتجاوز أسبوعين. وأصبحت المهنة فحشاً ودعارة، وكثرت «الكباريهات» وصارت المطاعم تكتب مع قائمة الطعام قائمة تكاليف الفتيات...[1] التي تصل إلى ٣٠٠ ين للفتاة الواحدة.

---

(١) آخر ساعة ٩/٧/١٩٥٢.

إن التقليد وهو ظاهرة اجتماعية نابعة من دوافع نفسية، سنة من سنن الكون، فليكن تقليداً فى المجال الذى يوافق عليه الدين ويدعو إليه الخلق، ولا يجوز أن يكون تقليداً أعمى فى كل شىء، كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء. والذين تورطوا من دعاة التجديد فى الدعوة إلى تقليد الغرب تنبهوا إلى سوء فهم الناس للدعوة فتبرءوا من ردود الفعل السيئة لدعوتهم، ونعوا على التقليد الأعمى غير المتبصر، ومن هؤلاء «منصور فهمى» الذى قال: إنى وإن كنت من الذين عملوا على تحرير المرأة، وناديت بذلك مع «قاسم أمين»، ولكن هذه أمانة جيل وتجارب عمر، تؤكد أنه لا يجوز أن نقلد الغربيين فى كل شىء، فى حين أن أوروبا لم تكسب شيئًا من إطلاق قيود المرأة. وكان علينا أن نستفيد من أخطائهم. ولو عاد «قاسم أمين» ورأى هذا التطرف الذى لا مبرر له لنادى بالحجاب. إننا إذا أشركنا المرأة فى أعمال الرجل بلا حدود فقد أضعنا نعمة التخصص بين الجنسين، فلكل جنس اختصاصه،والرجال قوامون على النساء[1].

رابعًا - ضعف التدين والمقاومة:

إن ضعف روح التدين بالنسبة إلى ما كانت عليه فى الأزمان السابقة ظاهرة عامة بين الرجال والنساء، وهى راجعة إلى أسباب عدة لا مجال لذكرها الآن، لأنه موضوع واسع يتصل بكل أنواع المعاصى وما أكثرها!! ولعل من أسباب هذا الضعف الجهل بالواجبات عامة، والدينية بنوع خاص، نتيجة لقلة التعليم وضعف الثقافة الدينية، إلى جانب العوامل الأخرى، كتسلط المادة والتقليد الأعمى، والوقوع تحت سيطرة الاستعمار السياسى والثقافى والاجتماعى ومغريات الفساد التى تأتى بها الأحداث وتتقلب الأيام.

إن ضعف روح التدين أنتج ضعف الاهتمام بمقاومة الفساد والنهى عن المنكر، الذى منه السفور، سواء منها المقاومة الذاتية النابعة من نفس المرأة، والمقاومة الخارجية الموجهة من الآباء وأولى الأمر والمسئولين عامة.

---

(١) مجلة «الحج» ربيع الثانى ١٣٧٧ نقلاً عن «آخر ساعة» عدد ١٧٧١.

ومقاومة الفساد لا تجدى إلا إذا قامت بها كل الجهود لسد جميع المنافذ التى يتسرب منها، فإذا قام بعض بواجبه، وأهمل بعض آخر، أو انتقل من ميدان المقاومة إلى ميدان الهجوم على من يقاومون فلا يرجى من وراء هذا الجهد الضعيف خير.

والمقاومون للفساد ينبغى أن يكون على رأس قائمتهم رجال الفكر والتعليم، فهم الذين يستطيعون أن يبينوا خطر الانحراف، وكذلك الأزواج والآباء الذين يباشرون الرقابة على تصرف الزوجات والبنات، وكذلك أولو الأمر على المستوى الرسمى الذين يضعون القوانين ويراقبون التنفيذ.

عندما كان العلماء والمفكرون والمصلحون يستطيعون تغيير الفكر بأيديهم وبألسنتهم معًا، كانت مقاومة الفساد ميسرة، وكان ذلك واضحًا عندما كانت هناك وظيفة المحتسب، التى يتولاها أرباب العلم، يراقبون بها تنفيذ أوامر الدين والدولة، ولهم سلطة العقاب على المخالفة. فلما سلبت منهم هذه السلطة العملية اقتصرت مقاومتهم على اللسان والتوعية، والتوعية لا تفيد إن لم تصحبها قوة منفذة. على أن اللسان ضيق عليه فى فترات من الزمن، ولم تعط له الحرية الكاملة لتغيير المنكر، بل إن أولى الأمر وعامة الناس لم يستجيبوا له، ومن هنا دخل الوهن على قلوب الكثيرين من الدعاة لعدم جدوى هذه المقاومة الهزيلة. ولتعرض أصحابها للأذى الشديد.

والأزواج والآباء ضعفت مقاومتهم لسفور من تحت أيديهم من الزوجات والبنات، وذلك لضعف شخصيتهم أو لرقة دينهم وتحللهم، أو لتقليدهم لغيرهم، أو لعدم تقديس الرابطة الزوجية والنظام الأسرى، أو لأسباب أخرى، وأصبح الرجل لا يستطيع مقاومة رغبة المرأة فى السفور وغيره، بل صار حاميًا لها ومدافعًا عنها، وقد يكون سلوكها متجاوبًا مع هواه هو أيضًا، ليتمتع كما تتمتع هى بالنظر إلى السافرات والاتصال بهن. هذا إذا لم تتطور حمايته للسفور فيدفع المرأة إلى المنكر الفاحش، ليكون وسيلة لتمتعه هو، أيضًا بمثل ما تتمتع به.

وإذا كان كل من الزوج والأب وولى الأمر المباشر لا يقاوم السفور، فهل يقاومه رجل أجنبى لا صلة له بالمرأة إلا صلة العضوية العامة فى المجتمع؟ إنه يقول: دعنى وشأنى، ومالى ولغيرى، لأنه لا يرى فائدة لانكاره، بل ولا يهمه ذلك، خصوصًا إذا كانت هناك قوانين تحمى الحريات الشخصية وتوسع مجالها. وتمنع الشخص من التدخل فى هذه الشئون، التى يقولون عنها: إنها شئون خاصة.

وأولو الأمر المسئولون عن نظام الدولة. ضعفت كذلك مقاومتهم للسفور لأمرين واضحين:

(أ) إما لإقرارهم لمبدأ الحرية الشخصية وعدم اعتبار السفور شأنًا عامًا أو منكرًا، وذلك طبقًا للقوانين التى وضعوها، وهى لا تستند كلها إلى الدين.

(ب) وإما لأن القائمين على تنفيذ هذه القوانين، على فرض أنها تحرم السفور، لا يهتمون به كثيرًا إلا إذا مس الأمن العام بسوء، وهم يكلون هذه المهمة إلى رجال الآداب، وقد يكونون غير مخلصين فى المراقبة، أو لعدة نزعات وأغراض أخرى لا يمكن معها مقاومة الفساد. والمقاومة إذا كانت بهذا الضعف فسحت المجال للسفور ولغيره من المنكرات.

خامسًا - حماية السفور وتشجيعه :

قلنا: إن الوازع الدينى إذا كان ضعيفًا، ووجدت عوامل مساعدة على الخروج على الآداب، ثبتت دعائم السفور واستقر أمره، فكيف يكون الحال لو انقلبت مقاومته إلى حمايته وتشجيعه؟

إن العوامل المشجعة للسفور تتلخص فى عاملين رئيسيين، هما قوة الدعاية له، وإيراد الشبه على الحجاب.

فالدعوة إلى السفور شديدة قوية، لها وسائلها المتعددة، وكل منها له

إمكانياته الواسعة[1] واستعداداته الضخمة، وهذه الامكانيات والاستعدادات تطغى بقوتها على المقاومة، حتى تكاد تميتها. فها هى ذى الأفلام السينمائية، وبخاصة منها المستوردة السافرة، والإذاعة المسموعة والمرئية، والصحافة وكتب الأدب المكشوف، والجمعيات الرياضية والمؤتمرات النسائية، والحفلات المختلطة، وتشجيع السافرات بالمكافآت وتولى الوظائف الهامة وسائر أنواع التشجيع، وفرض زى غير كامل الحشمة لبنات المدارس، ووجود المدارس الأجنبية وتطبيق النظم الغربية على طالباتها فى التحرر والاختلاط، والحملات الشديدة على الحجاب، وتوجيه الاتهامات القاسية إليه، كل هذه الأجهزة بوسائلها المتعددة تدعو إلى السفور وتستنكر الحجاب، وتهزأ بالمحافظين والمحافظات، إلى جانب حماية القوانين للسفور، وعقاب من يجرؤ على التدخل فى الحريات، وتمسك الكبار به وتشجيعهم له، كل ذلك وغيره من العوامل التى تزيد انتشاره، وتحيله إلى أمر مستساغ، كأنه مشروع.

* * *

(١) كلمة إمكانيات، تكتب أحياناً إمكانات، ويراد بها التسهيلات الممنوحة أو الموجودة بالفعل فى شيء من الأشياء، وهى فى أغلب الظن ترجمة للكلمة الأجنبية «بوسيبليتيه» فى اللغة الفرنسية مثلا. وهى مأخوذة من كلمة ممكن أو إمكان، التى تحمل معنى عدم الاستحالة، ومعنى التيسير.

الفصل الثانى

الدعوة إلى السفور

لقد كان السفور أولاً تقليداً، ثم جاء قوم دعوا إليه وشجعوه، وكان من أسبق الدول الإسلامية التى بررته مصر.

إن البعثات التى أوفدها «محمد على» إلى أوروبا، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، اطلعت على نظمها وعاداتها، وأعجبت بالكثير منها، وكان من ضمن ما نقل وحاز إعجاب البعض تعليم المرأة واشتراكها فى خدمة المجتمع، وتحررها من القيود المفروضة عليها. التى كان يمثلها نظام الحريم التركى. كذلك تأثر بعض المفكرين فى مصر بما قرءوا عن نظام الغرب وعاداته ووضع المرأة فيه، كما ظهرت كتابات تنقد المجتمع المصرى، وتعيب عليه حجاب المرأة، وتنسب تأخره إلى تعاليم الدين. فهب هؤلاء المفكرون ينادون بتحرير المرأة، ويدفعون الشبه عن الحجاب، أو يطالبون بإلغائه.

وممن نادى بذلك رفاعة الطهطاوى المتوفى ١٨٧٣م، وعلى مبارك المتوفى ١٣١١هـ، وجمال الدين الأفغانى المتوفى ١٨٩٧م، ومحمد عبده المتوفى ١٩٠٥م، وقاسم أمين وسعد زغلول، وفارس نمر ومرقص فهمى المحامى، وإبراهيم اللقانى، والمويلحى المتوفى ١٩٣٠م وغيرهم.

غير أن كثيراً من هؤلاء كانو يدعون إلى إصلاح المرأة فى نطاق الدين، مع تصحيح بعض المفاهيم الدينية، لتسير مع دعوتهم الإصلاحية.

وكان أبرز هؤلاء فى نشاطهم وأكثرهم كتابة وأشدهم تحمساً هو «قاسم أمين» الذى ألف فى ذلك بعض الكتب، فكان بنشاطه أساساً أو منطلقاً للمناداة بعده بتحرير المرأة، ولاندفاعها الجارف إلى التمتع بحريتها فى غير وعى ولا تبصر. ولهذا سأذكر ترجمة موجزة له تلقى بعض الظلال على الدوافع التى دفعته لمسلكه فى تحرير المرأة.

قاسم أمين :

ولد فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٣م فى ضاحية «طرة» جنوبى القاهرة، حيث كان يقيم أبوه الأميرالاى «محمد بك أمين» فى عسكر مرابط هناك. وأبوه من أسرة تركية، تولى بعض أفرادها «السليمانية» من أعمال العراق، وظلت الأسرة تقوم مدة بهذه الولاية حتى ظن أنها كردية.

وولد أبوه فى السليمانية، وسافر إلى الآستانة، ثم جاء إلى مصر. فولد له فيها ابنه قاسم. تعلم قاسم فى مدرسة ابتدائية بالاسكندرية، ثم دخل المدرسة التجهيزية بالقاهرة «الخديوية الآن» ثم مدرسة الحقوق والإدارة، فنال شهادة منها فى ٢٤ من أكتوبر ١٨٨١م. وسافر فى بعثة إلى فرنسا، وأتم دراسته فى كلية الحقوق فى «مونبلييه» وعاد إلى مصر فى ٢٥ من أغسطس ١٨٨٥م فاشتغل مساعدا للنيابة المختلطة فى أول ديسمبر ١٨٨٥م، ثم دخل قسم قضايا الحكومة فى ٢٢ من سبتمبر ١٨٨٧م. ثم رئيس نيابة بنى سويف فى يونيه ١٨٨٩م، ثم فى طنطا، ثم عين فى ٢٦ من يونيه ١٨٩٢م مع سعد زغلول ويحيى إبراهيم نواب قضاة بمحكمة الاستئناف، وبعد سنين كان مستشاراً بالمحكمة حتى توفى بالسكتة القلبية فى ٢٢ من أبريل سنة ١٩٠٨م[١].

فى سنة ١٨٩٤م[٢] تولى الرد على الدوق داركور الذى نشر سنة ١٨٩٣م كتابه «مصر والمصريون»، ونقد فيه حال المرأة المسلمة، ناسباً عدم تمتعها بالحرية إلى الدين، وكان رد قاسم رداً منصفاً اتخذ فيه الدين والأخلاق الشرقية سلاحاً له، فنعى على النساء اللاتى يشتغلن فى أوروبا بالدسائس والسياسة، وقال: إن النساء لا يستفدن من الاشتغال بأشغال الرجال، بل يخسرن كثيراً من جمالهن،

---

(١) تزوج سنة ١٨٩٤ وسنه إحدى وثلاثون، وكانت زوجته تسمى «زينب» بنت أمين توفيق أمير البحر التركى، ولم تكن ثقافتها فى مستواه، وولدت له بنتين، الكبرى واسمها «سيدة» تزوجت بعد وفاته بمستشار، والصغرى واسمها «جلسن» تزوجت بضابط بمصلحة السجون «الأهرام ١١/٩/١٩٧٨».

(٢) فى أهرام ٢/٣/١٩٦٧ تحت عنوان «منذ ٧٥ سنة» فى هذا التاريخ نفسه (٢/٣/١٨٩٢) أن قاسم أمين ألف كتاباً عن المصريين رد فيه على اتهامات داركور.

ويخسر المجتمع أيضًا. ويستحسن عكوف المرأة على تربية أولادها، ويفضلها على امرأة تلقاه فى الطريق تهرول وتحت إبطها كتاب، وعندما تقابله تضرب على كتفه وتحييه. وينعى على قوانين أوروبا فى عدم أهلية المرأة للتصرف. وذكر أن حكمة الحجاب وقاية من خطر الغريزة الجنسية، وعاب على الفرنجة فجورهم واختلاطهم وحفلاتهم، وذكر أن الاختلاط يهدد الزواج بالانفصال، وأن الزواج عندنا يعد مبدأ التمتع، وعندهم ختامه.

وبمثل هذا الرد رد «مرقص فهمى المحامى» فى روايته «المرأة فى الشرق» سنة ١٨٩٤م. غير أنه دعا إلى الزواج بين المسلمين والأقباط ولم يقبله الرأى العام من المسيحيين والمسلمين على السواء.

وقاسم أمين تحول بعد ذلك إلى داعية لتقليد الغرب فى تحرير المرأة، وكان ذلك بوحى من الأميرة «نازلى فاضل» حفيدة إبراهيم باشا، التى كان يتردد عليها الأدباء والمفكرون، لأنها غضبت منه لدعوته الشرقية الإسلامية وكانت تحب السفور والتملص من أسر الحريم على ما هو معروف. ويقال: إن تغيير موقف قاسم كان بايعاز من الشيخ محمد عبده، وأنه هو الذى ألف كتاب تحرير المرأة ونسبه إلى قاسم خشية ثورة الرأى العام عليه كرجل دين يتولى منصبًا إسلاميًا كبيراً.

ويقول داود بركات فى ذكرى قاسم أمين «أهرام ٤ / ٥ / ١٩٢٨» أن دعوته إلى السفور والاكتفاء بالحجاب الشرعى كان إرضاء لنازلى، لتضمن قوة الحزب بنفوذ الأميرة فى صراعهم ضد قصر عابدين والخديوى عباس حلمى[١].

ويرجح بعض الكتاب أن كتاب تحرير المرأة (١٦٦ صفحة) الذى نشره

---

(١) جاء فى مجلة «الأمل» لمنيرة ثابت فى عدد مارس وأبريل ١٩٥٨ من المعلومات ما يؤكد أن الاستعمار له دخل فى الثورة على الحجاب، فإن «المندوب السامى» البريطانى كان يسهر مع نازلى حتى مطلع الفجر، بعد انفضاض ندوتها مع الشخصيات البارزة التى كان ينتخب منهم المندوب السامى من يشاء للوظائف الكبرى، وكان لا يجرؤ أحد منهم على عصيان «نازلى».

قاسم أمين سنة نيف وتسعين وثمانمائة وألف (٧ أو ٨ أو ١٨٩٩م) اشترك فيه أنصار المرأة وكتب كل منهم فصلاً[١]. وكانت الدعوة فيه إلى الاكتفاء بالحجاب الشرعى الذى يسمح بكشف الوجه واليدين « ص٥٤، ٥٥، ٦٣ طبعة ١٩٢٨م »، محاولاً أن يثبت أن الحجاب ليس من أصول الدين الهامة فى الإسلام. وعندما هاج عليه الرأى العام ألف كتاباً آخر، هو « المرأة الجديدة » (٢٢٩ صفحة) ونشره سنة ١٩٠٠م . رد فيه على من نقدوه وشرح الحرية باتساع، ضارباً المثل بالمرأة الأمريكية، وتحمس لخروجها إلى العمل ومساواتها بالرجل[٢].

وجاء فى ص٢٠٩ من هذا الكتاب قوله : إن الكل متفقون على أن حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق، وأن خلع الحجاب هو سر تقدم الغرب. واقترح إنشاء رابطة للآباء المثقفين لمطالبة الحكومة بتعليم الفتاة.

ويلاحظ أنه مع تحمسه لدعوته لم يرغم زوجته على السفور، لكنه طبقه على بناته من الجيل الجديد[٣] أحدث هذا الكتاب ضجة فرقت عنه أنصاره، ولم يبق معه إلا إبراهيم رمزى المترجم بوزارة الحقانية « العدل ». وظل قاسم متحمساً لكتابه هذا حتى توفى فجأة وهو يخطب فى حفل أقيم لبعثة من الطالبات الرومانيات. فكانت آخر كلماته : كم أكون سعيداً فى اليوم الذى نرى فيه سيداتنا يزين مجالسنا، كما تزين باقات الزهور قاعات الجلوس.

وقد أهدى كتابه إلى سعد زغلول، فكان من المنفذين الفعليين لما فيه، ويبدو تحمسه لآرائه فى موقفه يوم أن أقيم له احتفال بعد عودته من منفاه حيث بدأ خطابه فيه بقوله : سادتى، وأرجو أن أبدأ خطابى فى حفل قريب بقول :

---

(١) يراجع كتاب « تطور النهضة النسائية فى مصر » للدكتورة درية شفيق والدكتور إبراهيم عبده ص٧٤، ٧٥ طبعة ١٩٤٥.

(٢) وممن رد عليه « محمد طلعت حرب » من عمال الدائرة السنية الذى ألف كتاب « تربية المرأة » وذلك فى ديسمبر ١٨٨٩م « أهرام منذ ٧٥ سنة فى مصر – ٢٧/١٢/١٩٧٤ ».

(٣) قاسم أمين لأحمد خاكى ومجلة المعرفة عدد ٢١٤ ويقال : إن شاباً زار بيته فلم يجده، فقال : أريد مقابلة حرمه فأبت فثار وقال : أليس يدعو إلى السفور فلماذا لا يطبقه على بيته؟

سيداتى، فلما كان الاجتماع الثانى حضر بعض النسوة محجبات، فامتدت يده إلى نقاب امرأة قريبة منه فى سرادق النساء، ونزعه عن وجهها، وأبى أن يخطب إلا إذا سفرن جميعاً[١].

وجاء فى أهرام ٢/٢/١٩٢٤ فى مخاطبته لوفد من الفتيات: إنى مبتهج بزيارتكن، وأعبر لكن بدورى عن سرورى برؤيتكن راغبات فى المعاونة فى العمل الاجتماعى والإدارى المفروض على الجميع، إننى من أنصار حرية المرأة، ومن المقتنعين بها، لأنه بغير هذا التحرير لا نستطيع بلوغ غايتنا[٢].

ويعزو بعض الكتاب تحمس سعد زغلول لتحرير المرأة أو عدم غيرته عليها والأمر بكشف وجهها واندماجها فى الحياة العامة إلى حالة نفسية خاصة به، فإنه لم يتزوج «صفية» كريمة مصطفى باشا فهمى رئيس النظار إلا وهو مستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية، واحتفل بعقد قرانه فى ٢٨ أو ٢٩ نوفمبر ١٨٩٥[٣] وتوفى ولم ينجب منها.

إن حركة قاسم أمين كانت نواة لحركة التحرر النسائية فى العالم الإسلامى، وأكثر كتاب اليوم دعاة للسفور على الرغم من لمسهم لآثاره الخطيرة. وكثير من رجال التعليم والفكر من أكبر الدعاة له إن لم يكن بالقول فبالعمل. وقد كان المؤمل فيهم أن يكونوا فى صف المقاومة، بل أول الصف، حدث خلاف بين كلية الآداب وكلية الحقوق بجامعة القاهرة، بسبب أن طلبة الحقوق كانوا يغشون «بوفيه» كلية الآداب لمعاكسة الفتيات. ولما سحب الحرس «كارنيهات» الطلبة، واحتج عميد الآداب على عميد الحقوق لعدم منع طلبته، رفض الأخير وقال: إن

---

(١) وفى مجلة آخر ساعة «٢٧/٨/١٩٧٥» لما كانت صفية زغلول مع سعد على الباخرة التى نقلته من المنفى إلى الاسكندرية قال لها سعد: ارفعى الحجاب فتدخل على الشمس وواصف غالى وعارضا ذلك، لكن سعداً قال: إن المرأة خرجت إلى الثورة بالبرقع... ومن حقها أن ترفع حجابها اليوم، ورفعت صفية زغلول الحجاب.

(٢) كتاب تحرير المرأة فى الإسلام لمجد الدين حفنى ناصف طبعة ١٩٢٤م ص٣٧.

(٣) أهرام ٣/١١/١٩٧٠، ٢٩/١١/١٩٧٠ تحت عنوان «من٧٥ سنة فى مصر».

الجامعة لا قيود عليها «أهرام ١٣ / ٤ / ١٩٦٢»، لعل عميد الآداب كان يتكلم بمنطق الآداب، وعميد الحقوق كان يتكلم بمنطق الحقوق التى كفلت الحريات الشخصية وأساء الناس استعمالها، فكلام الأول كان بوحى من نتائج وثمار الشجرة التى غرسها الثانى بقانونه.

على أن بعض العقلاء والذين يريدون إصلاح حال المرأة لم يغفلوا الآداب الدينية والتقاليد الشرقية، ومنهم ملك حفنى ناصف التى نهت عن الطفرة فى الإصلاح، وسيأتى حديث عنها بعد، وكذلك بعض الجمعيات المهتمة بالشئون النسوية كجمعية السيدات المسلمات[1].

* * *

(١) أنشئت فى العقد الرابع من هذا القرن برياسة «زينب الغزالى» وكان الغرض من إنشائها النهوض بالمرأة المسلمة من النواحى الثقافية والخلقية عن طريق المحاضرات والدروس، وقد انفصلت عنها بعض السيدات وكون جمعية أخرى بهذا العنوان، وحلت الجمعية الأولى فى عهد الثورة المصرية لأسباب سياسية.

obeikandl.com

الفصل الثالث

آثار السفور

السفور القائم على عدم اتباع الإرشادات الخاصة بالحجاب كلها، لا بمعناه الخاص وهو كشف المحاسن والمفاتن، له آثار خطيرة على المرأة نفسها أولاً وعلى الرجل وعلى الأسرة وعلى المجتمع كله ثانيًا، وإليك بعض هذه الآثار:

١ – السفور يغرى المرأة بالتمادى فى التحلل من قيود الدين والأخلاق، لأنه تلبية لنداء الغريزة الجنسية التى هى من أقوى الغرائز فى الإنسان. فهو يغرى البنت بالتحرر من رقابة والديها، وفى ذلك ما فيه من الخطورة فى فترة الشباب، ويغرى الزوجة بالتحرر من سلطان زوجها، ويضيع معنى كونها زوجة له ومعنى كونه قوامًا عليها، ولو أفلت الزمام من يده، وترك لها الحبل على الغارب، استمرأت هذا المرعى وكان وراء ذلك من الفساد ما لا يخفى على عاقل

٢ – التبرج يصرفها عن واجباتها الزوجية والمنزلية، ويغريها بالتمرد على الوظيفة التى هيأها الله لها، ويحبب لها الخروج من البيت لعرض مفاتنها، ولا شك أن إهمال الواجبات المنزلية خطر على مستقبلها ومستقبل زوجها وأولادها ومستقبل الوطن كله. وقد أحسنت بعض الحكومات الحالية صنعًا عندما خيرت المرأة بين الزواج والعمل فى الحكومة، وكان هذا فى ماليزيا، ورأت البيجوم «مريم هاشم الدين أحمد» عضو مجلس الخدمات الأعلى فى باكستان، ونائبة رئيسة الجمعية النسائية فى كراتشى، أن المرأة العاملة تطالب بإجازة طويلة لتتفرغ إلى تربية أولادها، بدل دور الحضانة، فبقاؤها فى البيت من حق أولادها. وشهد شاهد من أهلها[١].

وستأتى شهادات الخبراء بذلك. والمرأة التى أحبت الخروج وتركت بيتها

---

(١) أهرام ٣/١٠/١٩٦٣.

لعمل أو لغيره تمادت فى غلوها حتى طالبت أن يتعاون الرجل معها فى أعمال المنزل لتقضى أكثر وقتها فى العمل الخارجى، كأنه هو الأساس وعمل المنزل فرع، جاء فى أهرام ٤ / ٢ / ١٩٦٣ أن الزوجات العاملات فى باريس يشتغلن ٩٠ ساعة فى الأسبوع، ورفضن تخفيف ساعات العمل، وطلبن أن يكون الحل هو مساعدة الأزواج لزوجاتهن فى أعمال المنزل.

٣ – سفور المرأة يؤثر على الرجل، كما أثر على المرأة، فهو يلهيه عن واجباته ومهامه، ويؤثر تضييع وقته فى الأمور التى تتعلق بالناحية الجنسية، فذلك أمر محبب إلى نفسه، يجد فيه متعته، بعيداً عن أعماله الجادة المرهقة، ناسيا ما وراءها من كسب مادى وأدبى لا يعوضه بالنساء، فالزوج مثلاً يتبرم بالجلوس فى البيت مع زوجته وأولاده لمراعاة شئونهم، ويؤثر أن يمضى أكثر وقته فى الأماكن التى يشبع فيها غريزته وشهوته، ولو بمجرد النظر إلى النساء. والتاجر والعامل وذو المهن المختلفة يحاولون أن يمتعوا أنفسهم بالانطلاق من قيود العمل إلى حيث تكون الفتنة بألوانها المتعددة وأنواعها الميسرة، وأخطر ما يكون الانصرف عن الواجبات عند الشبان، وبخاصة طلاب العلم، فإن شبابهم له فورته وانطلاقه، وإن مهمتهم الخطيرة تقتضيهم صرف أكثر أوقاتهم فيها، والمتعة الميسورة مع إلحاح الغريزة تصرفه عن عمله الجاد وتغريه باللهو، وفى ذلك من الخطورة على مستقبله ومستقبل الوطن ما فيه، وحادث كلية الآداب وكلية الحقوق المتقدم دليل على ذلك إلى جانب الأدلة الكثيرة الأخرى، التى يلمسها الناس فى بيوتهم مع أولادهم الذين « يزوغون » من المدارس إلى دور اللهو ومعاكسة النساء فى الطرقات.

٤ – السفور يفتح الباب للرجل للتخنث والفتنة بالتجمل الذى يمسخه إلى امرأة أو قريب منها، كما يغريه بالخروج على الآداب وعدم الاكتراث بما يوجبه الحياء، فالألفاظ النابية التى يجذب بها الشاب انتباه فريسته، والكلمات الماجنة والأغانى المبتذلة، والاستهانة بالقيم، ومزاحمة النساء فى الأماكن العامة وتعمد

الاحتكاك بهن بكلام أو بغيره، والإغراق فى التأنق بالعطور والأدهان والسلاسل والزهور والملابس الشفافة والضيقة والمشجرة... كل هذه المظاهر لا تتناسب مع الرجولة دعا إليها سفور المرأة.

وإذا كانت حياة الشاب تبدأ بهذه الأخلاق المرذولة فإن سلوكه سيزداد عوجًا، وسيشيب على ما شب عليه. وهنا يكون العفاء على الرجولة التى هى ذخيرة الوطن والمجتمع الإنسانى كله. نعم يكون العفاء على الرجولة التى يتطور الخروج عليها إلى الشذوذ، ذلك الشذوذ الذى انتشر هناك فى الأوساط الغربية، وستنتقل عدواه إلى الأوساط الشرقية.

إن هذا الشذوذ تمكن فى الغرب حتى اضطرت بعض دوله إلى الاعتراف به رسميًا وعدم اعتباره جريمة. وللصهيونية العالمية بمخططها الإجرامى ضلع كبير فى ذلك، ولهذا الشذوذ مظاهر اهتم ببيانها المختصون، منها:

(أ) تعرية بعض الأعضاء الجنسية أمام الجنس الآخر، دون ممارسة الجنس بالطريقة السوية، وما أمر «الستيركنج» وهو الجرى أمام الناس مع العرى التام ببعيد.

(ب) الرغبة الشديدة فى رؤية بعض الملابس الداخلية للمرأة دون ممارسة الجنس مع المرأة.

(جـ) ارتداء الرجال ملابس النساء الداخلية للحصول على اللذة، دون ممارسة الجنس معها.

(د) تحرك الرغبة الجنسية بمجرد مشاهدة عملية جنسية تؤدى أمامه.

(هـ) استعمال العنف فى الاتصال بالمرأة عند عدم رغبتها.

(و) الاتصال بالحيوانات بدلاً من الإنسان.

(ز) الاتصال بين الجنس وجنسه، كالرجال مع الرجال، والنساء مع النساء[1].

---

(١) ملخص من مجلة الهلال عدد أبريل ١٩٧١ للدكتور فاروق مصطفى.

وإليك بعض الأخبار فى هذا الشذوذ:

(أ) فى أهرام ٢٤ / ٤ / ١٩٦٣ ضبطت مدرسة فى باريس تعلم «الجنس» لمائة مراهق ومراهقة، مكانها قلعة مظلمة شمالى باريس تسمى ناديها «نادى الأرنب الصغير» فيها صور خليعة وخمور ويتعلم الشبان فيها الدروس عملياً.

(ب) وفى أهرام ١٨ / ٣ / ١٩٦٤ برقية من القدس فى ١٧ منه أنه أدرج فى جدول أعمال برلمان إسرائيل اليوم مشروع قرار بشأن انتشار العلاقات الجنسية الشاذة فى البلاد، وهو يقضى بعدم اعتبارها جريمة فى حال قيامها بين الراشدين بمحض اختيارهم.

(جـ) وفى أهرام ١٢ / ٥ / ١٩٦٥ أن خمسة من الأساقفة وثلاثة من اللوردات طالبوا الحكومة البريطانية بأن تلغى القوانين التى تعاقب على الشذوذ الجنسى، ما دام برضا الطرفين . اهـ.

ومعروف أن كبار القوم فى إنجلترا كانوا يمارسون هذا الشذوذ. وقد ضبط «أيان دوجلاس هارفى» وكيل وزارة الخارجية وهو متلبس بهذه الجريمة مع جندى فى إحدى الحدائق العامة متجرداً من ملابسه، وكان عمر «هارفى» ٤٤ سنة وعمر الشاب ١٩ سنة. وكان الجندى يرتدى الملابس الرسمية، فيما عدا السروال والبنطلون، وهو يعمل حارساً فى قصر «بكنجهام»[١]. ولعل انتشار هذه الجريمة هو الذى جعلهم يفكرون فى إلغاء عقوبتها.

(د) وفى أهرام ٥ / ٧ / ١٩٦٧ فى برقية بتاريخ ٤ منه أن مجلس العموم البريطانى وافق بأغلبية ٩٩ صوتاً ضد ١٤ على مشروع قانون بإباحة الشذوذ الجنسى بين الذكور البالغين، على شرط أن يكون ذلك فى أماكن خاصة وبعد موافقة الطرفين. وفى الخبر نفسه أن عدد المصابين بالشذوذ بين البريطانيين يتراوح بين نصف مليون ومليون شخص.

---

(١) جريدة الشعب ٢١ / ١١ / ١٩٥٨.

(هـ) وفى أهرام ٦ / ٧ / ١٩٦٧ : أن شابين من المصابين بالشذوذ الجنسى عقد قرانهما على بعضهما فى كنيسة كاثوليكية فى « روتردام » بهولندا. فكأن الدين نفسه أو أصحابه يقرونه.

(و) وفى أهرام ٣٠ / ١١ / ١٩٦٧، وافق ٩٠ من رجال الدين الأمريكيين فى ندوة عقدوها فى نيويورك على عدم استنكار ممارسة الشذوذ الجنسى إذا كانت قائمة على عاطفة الحب. أفبعد هذا انتكاس للعقلية الأدبية فى القرن العشرين، الذى يعود بالناس إلى الجاهلية الأولى فى إتيان ما لعن الله به قوم لوط، ويكون ذلك بإقرار رجال الدين الذين يتبرأ الله منهم؟ ولنا أن نقول : ليس بعد الكفر ذنب.

(ز) وفى أهرام ١٦ / ٥ / ١٩٦٩، برقية من « أوتاوا » فى ١٥ منه : وافق مجلس العموم الكندى على إباحة الشذوذ الجنسى بين البالغين بشرط أن يتم فى أماكن خاصة وبرضا الطرفين.

(ج) وفى أهرام ٢١ / ١٠ / ١٩٦٩، برقية من واشنطن فى ٢٠ منه : دعت لجنة حكومية إلى إلغاء القوانين التى تحرم الشذوذ الجنسى فى الولايات المتحدة، أسوة بإلغائها فى بريطانيا، وقالت اللجنة : إن فى الولايات المتحدة عدداً يتراوح بين ثلاثة ملايين وأربعة ملايين شخص من البالغين الذين تفرض قيود على تعيينهم بسبب شذوذهم، ولا بد من إلغاء هذه القيود.

هذه شهادات، ويوجد مثلها فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة، تدل على النتيجة المؤسفة لجموح الغريزة الجنسية، التى توفرت دواعى إثارتها أولاً بالنساء ثم انتهت إلى العلاقات الشاذة.

إن هذه الفوضى الجنسية زادها حدة الأخذ بمذهب الوجودية فى صورته غير الكريمة، ومع انتشار هذا المذهب فى فرنسا، فإن مصر لم تعرفه إلا فى سنة ١٩٥٤م، حيث نقلته « م.ب » من باريس، ودعت إليه، على الرغم من جهلها

لفلسفته، فالتف حولها الكثيرون. وكانت لا تتجاوز السنة السادسة عشرة. وهى «بنت ذوات» وأبوها مليونير، يملك أكثر من ٥٠٪ من الفنادق المصرية. تزوجت من فرنسى، ورحلت معه إلى فرنسا. وكان مركز نشاطها فى مصر «الشامبين كلوب» وتزعم الطائفة بعدها «أحمد كمال» وهو ابن إحدى أميرات الأسرة المالكة، ويقيم فى المعادى. وكان قد زار فرنسا وتأثر بالوجودية فيها[١].

د – السفور أساء إلى سمعة الزوج، لأن المرأة المتبرجة المنطلقة إذا كانت معروفة حكم الناس بسلوكها على سلوك زوجها، ورتبوا على ذلك نتائج كثيرة. تسقط هيبته من نفوسهم، ويعاملونه، إذا كان له اتصال بهم فى أى مجال من المجالات، معاملة خاصة تتناسب مع من لا يعرف الغيرة والكرامة.

ويقوى الحكم السيء على زوجها بسلوكها إذا كان يصحبها فى الطريق والمجتمعات، فذلك دليل قوى على رضاه بهذا السلوك وتشجيعها عليه، أو على الأقل دليل على ضعف شخصيته وعجزه عن التحكم فى شططها. بخلاف ما لو لم يصحبها، فقد يؤول سلوكها على أنه بغير رضاه، أو بغير علمه.

٦ – السفور يسيء إلى العلاقة الزوجية، وذلك بفتورها الناشئ عن انصراف الزوج إلى المتعة خارج المنزل، وإلى هجره طويلاً، وعن تحول قلبه عن زوجته لإعجابه بأخرى، ذلك الإعجاب الذى يجعله يندب حظه السيء الذى أوقعه فى الزواج بمن هى فى مؤخرة الركب فى نظره، وينعكس هذا الشعور على معاملته لها، وبخاصة أنها لن تكون فى ساعة من الساعات داخل بيتها فى المظهر الجذاب الذى رأى زوجها عليه المتبرجة، ذلك أن المتبرجة تحاول أن تكون فى أكمل زينتها، بينما تكون الزوجة فى بيتها فى زينتها العادية إن كانت ستتزين، لأنها ملت رؤية زوجها، وتكرر جلوسها معه، فهى لا تبالى كثيراً بإتقان زينتها، والجديد دائماً يجذب الانتباه، وكل إنسان يكيف شعوره وإحساسه ما جد فى حياته. والرجل الطلعة لا يسلم أبداً من تحول قلبه، ولو إلى حد ما، عن زوجته

---

(١) مجلة البوليس عدد ٤٨ فى ٣ مارس ١٩٧٧م.

التى يراها كل يوم فى شكل واحـد، مع أنه يرى فى الخـارج أشكالاً جـديدة متنوعة وجذابة، ولا شك أن تحول قلبه عن زوجته ينعكس على معاملته لها وقد ينجم عنه مـشـاحنات ومنازعـات، وهذا بدوره يؤثر على سلوك الأولاد. وقـد ينتهى الأمر بالطلاق فتكون المصيبة أكبر على الزوجين، وعلى الأولاد أيضًا.

وقد يحدث أن يتزوج الرجل بمن أعجب بها مع إبقائه على زوجته الأولى، وكلنا يعلم الآثار المترتبة على حياة الضرائر، وبخاصة إذا كان الحامل على الزواج غير شريف، أو لا مبرر له تبريرًا قويًا.

هذا، وقد قال الخبراء: إن السفور يؤثر على الميل القلبى للزوجين فى بدء حياتهما الجديدة، ذلك لأن الزوج قد شبع من مثل هذا اللقاء، حتى فى أدنى صورة. فالعروس ليست شيئًا جديدًا عليه، أو ليس ميله لها بالدرجة القوية التى كان ينبغى أن تكون بين اثنين بدءا بناء عش جديد، يرجى له أن يدوم. فإذا كانت العلاقة بينهما فاترة من أول لقاء فكيف يكون الحال فى المستقبل؟ وهى – كطبيعة كل شىء – تقل وتضعف بمرور الزمن.

وقد عبر بعض الكاتبين على ذلك بقوله: إن الزواج فى البيئة الإسلامية المتحجبة هو مبدأ التمتع، أما فى البيئات الأخرى غير المحافظة فهو نهاية التمتع. وشتان بين زوجة ترى زوجها، فى الصبيحة التالية لدخولها، ساكن الحواس جامد العواطف، كأنه راغب عنها، وبين من تراه فى فرح وإقبال ورغبة فيها.

وإذا كان السفور يؤثر على ميل قلب الرجل، فهو يؤثر أيضًا على قلب المرأة، وذلك لكثرة خروجها واطلاعها على رجال هم فى نظرها أحسن من زوجها، ولمعاملتها له على قدم المساواة من غير إحساس بأنها زوجته وأنه القوام عليها، ولكثرة النقاش فى ظل الحرية والمساواة، فى المسائل السياسية والفلسفية، وللمعارضات الفكرية التى قد تباعد بين القلوب.

٧ – والسفور كذلك يرهق ميزانية الأسرة، لأنه يتطلب كماليات من أجل الزينة، قد تؤثرها المرأة على الضروريات، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك عند ذكر فوائد الاستقرار فى البيوت.

ومن طريف الشعر فى غرام النساء بالزينة، على الرغم من حاجتهن إلى القوت الضرورى، وعلى الرغم من تخطى سن الشباب والأمل، قول الشاعر:

عجوز ترجى أن تكون صبية ... وقد نحل الجنبان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار ميرة أهلها ... وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟
تزوجتها قبل المحاق بليلة ... فكان محاقًا كله ذلك الشهر
وما غرنى إلا خضاب بكفها ... وكحل بعينيها وأثوابها الصفر(١)

٨ – السفور يصرف الشبان عن الزواج، وكذلك يصرف البنت عن الرغبة فيه ما دامت المتعة سهلة ميسرة. فالسفور يعطى الفرصة للرجل لينفس عن غريزته الجنسية بأية وسيلة من الوسائل، إن لم تكن بالاتصال الجنسى فبما دونه من نظر أو لمس أو كلام أو نحو ذلك، وهذا، من غير شك، يصرفه عن الزواج أصلاً، أو على الأقل عن التبكير به، وذلك لعاملين أو تحت ضغط فكرتين عنده:

أولاهما الشك فيمن يريد زواجها، فقد تكون على شاكلة غيرها ممن اتصل بهن فى عدم الحفاظ على الشرف، والرجل، وإن كان يبيح لنفسه الاتصال بالنساء، لا يرضى لزوجته، غالبًا، أن تدنس شرفها أو عفافها بمثل ما يفعله هو مع النساء، كما يقول القائل:

وأترك حبها من غير بغض ... وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب ولغن فيه

وثانيتهما عدم تقييد نفسه بالارتباط بزوجة واحدة، فالألوان أمامه متعددة مغرية وميسورة، وعدم التزامه بالتبعات والهموم التى يجرها تكوين الأسرة، ما دام لا يلتزم بمثلها فى تمتعه الحر الطليق، على ما يظن، وإن كان هذا السلوك الأعوج له أخطار كثيرة لو عقلها لأعرض عنه، وآثر الحلال على الحرام، ولعل هذا الشعور هو الذى شجع الغرب على كثرة اتخاذ الخليلات بجانب الزوجة الواحدة، حيث لا تكون لهن التزامات كالتزامات الزوجة والأسرة.

---

(١) العقد الفريد ج٢ ص٧٩. وسيجىء تكميل لهذا الخبر فى الجزء الثالث.

وذلك إلى جانب أن رؤيته للسافرة بأكمل زينتها قد يوقع فى نفسه أنها على مستوى اقتصادى واجتماعى يسهل لها اقتناء هذه الزينات، وأن مستواه هو أقل من مستواها، فكيف يتزوج بها وهو لا يستطيع الوفاء بمطالبها، ومعلوم أن هذه الفكرة عنها خطأ، فقد تكون الفتاة من أسرة فقيرة لكنها تؤثر كماليات الزينة على كل شيء، بل قد تكون هذه الزينة مستعارة تنصبها شبكة لاصطياد الفريسة، أو ترضى غرورها فى إدعاء أنها من وسط راق، أو على الأقل غير هزيل.

والحجاب معروف أنه يساعد على الزواج وتكوين الأسر، فالممنوع يغرى بطلبه، والمعروض بكثرة مهان تمل النفس منه أو لا تحترمه على الأقل، يقول الشاعر:

عرضنا أنفسًا عزت علينا فهانت واستبد بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت كذلك كل معروض مهان[1]

ويقول آخر:

منعت شيئا فأكثرت الولوع به وحب شيء إلى الإنسان ما منعا

٩ – السفور، كما يرهق ميزانية الأسرة، يرهق الميزانية العامة للدولة، فإن كثيراً من كماليات السفور تستورد، فى كثير من الدول، من خارجها، ويحول جزء من المال «الحر» خارج الدولة، مع حاجة الضرورات المحلية إليه.

١٠– السفور من الأسباب القوية المشجعة لإقامة الحفلات المختلطة لمناسبات كثيرة، وكل إنسان يعلم ما يحدث فى هذ الحفلات من سكر ولهو عابث واتصالات مريبة، وذلك كله ينعكس على الحياة الزوجية وعلى الحياة الاجتماعية بشكل عام.

---

(١) روى هذان البيتان فى بيت واحد:

عرضنا أنفسا عزت فهانت كذلك كل معروض مهان

وروى البيتان على النحو التالى:

عرضنا أنفسا عزت علينا عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت ولكن كل معروض مهان

ومن أخطر هذه الحفلات حفلات اختيار ملكة الجمال، جمال العيون، جمال السيقان، جمال كذا، ملكة التفاح، ملكة العنب، ملكة الشواطئ... والحكام فى الغالب من الرجال، وبدعة انتخاب ملكات الجمال ابتدعها «موريس دى فاليف» رئيس تحرير جريدة «بارى ميدى» الفرنسية سنة ١٩٢٠م، وانتشرت فى أوروبا وانتقلت إلى العالم، كجزء من المخطط الصهيونى لإفساد العالم وتهيئته للاستيلاء عليه فى كل مقدراته. «تقويم الهلال ١٩٣٣م ص٤٩».

جاء فى أهرام ٤/٣/١٩٨٦م أن فكرة ملكة جمال العالم ظهرت سنة ١٩٥١م عندما طلبت الهيئات الرسمية فى لندن المشرفة على مهرجان بريطانيا فى هذا الوقت من رجل اسمه (إيريك دوجلاس مورلى) أن يقوم بالدعاية للمهرجان، فاقترح فكرة اختيار ملكة جمال العالم ليستقطب الأنظار إلى لندن، وعندما انتهى المهرجان تأسست شركة ملكة جمال العالم فى «سموهر» بلندن.

١١- شجع السفور على كثرة بيوت الزينة، والتفنن فى اختراع أنواعها، من أدهان ومساحيق وحلى وزينات أخرى فى مواضع كثيرة من الجسم، وبأشكال جذابة لافتة مغرية، والمرأة مفتونة بها لا يمكنها أن تصبر حتى تنال منها قسطًا تظهر جمالها أو تكمل به ما نقص منه.

ولليهود أيضًا دخل كبير فى هذا المجال، وفى غيره من المجالات التى تستغل فيها فتنة المرأة، كما سبق ذكره فى عرض الحجاب قبل الإسلام. أخرج مسلم «ج١٤ ص١٠٩» عن سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية المدينة، فخطبنا، وأخرج كبة من شعر، فقال: ما كنت أرى أن أحدًا يفعله إلا اليهود. إن رسول الله ﷺ بلغه، فسماه الزور، وسيأتى فى النهى عنه حديث آخر عن معاوية بهذا المعنى. والزور الذى ذكره هو الشعر المستعار والخرق التى يكثر أو يطيل النساء بها شعورهن. كما قال قتادة.

وكذلك شجع السفور على ابتكار نماذج الملابس والتجديد فيها وبخاصة ما يبرز منها فتنة المرأة. وافتتحت من أجل ذلك دور كثيرة للأزياء، وأقيمت حفلات لعرضها على أجساد النساء اللاتى تخصصن فى فن العرض الجذاب. وسيأتى فى الجزء الثالث بيان خطر ذلك.

جاء فى أهرام ٢٨ / ١٠ / ١٩٦٢م: قدمت هيئة تدريس بأكملها فى إحدى مدارس إنجلترا استقالتها، بسبب سوء مظهر الطالبات وسوء تصرفهن. وذلك بعد أن أرسلت هيئة التدريس أكثر من مرة، تهدد أولياء الأمور بفصل بناتهن من المدرسة إن لم يذهبن بالزى المدرسى، وفى مظهر يليق ببنات المدارس، ولم يستجب أولياء الأمور. وظلت الطالبات اللاتى تتراوح أعمارهن بين ١٢، ١٥ سنة يذهبن إلى المدرسة بالكعوب العالية بدلاً من الأحذية «الزحافى» والشرابات النايلون الشفافة، بدلاً من الشرابات «السوكيت» البيضاء، والجيبات الضيقة التى تكشف عن الركبة، والبلوفرات الطويلة الزاهية الألوان، والماكياج الكامل بما فيه الظلال والكحل، وتسريحات الشعر المنقوشة، والسجاير بين أصابعهن.

وعند تقديم الاستقالة أعلنت هيئة التدريس أنها فشلت فى إصلاح هذا الجيل من الفتيات، وأن الآباء لم يتعاونوا مع المدرسة فى القضاء على هذه النزعات الهدامة فى نفوس بناتهن، وبما أن التعليم وحده بدون تربية لن يصلح من أمورهن فلا ضرورة له. ولما علم الآباء بخبر إغلاق المدرسة وباستقالة جميع المدرسين والمدرسات احتجوا وقالوا: لماذا تشكو هيئة التدريس من مثل هذه التصرفات الساذجة، مع أنها لا تعنى شيئًا لو قورنت بتصرفات الطالبات فى أمريكا.

وفى أهرام ٢٠ / ٥ / ١٩٦٩: فى «سيلان»[١] وصل الخلاف فى «المينى جيب» إلى البرلمان، وتحدث بعض الأعضاء عن وجود علاقة بين أخلاق المرأة

---

(١) سميت أخيرا «سيرى لانكا».

والجزء الذى تكشفه من ساقيها، وتكلم الرهبان البوذيون عنه، لمخالفته للتقاليد القديمة. وعقدت اجتماعات على مختلف المستويات لبحثه. ووزعت منشورات ضده، وفى الريف ضربت الفتيات اللاتى ارتدينه. اهـ.

وإذا كان هذا شعور بلد لا يدين بالإسلام، فلماذا لا يكون مثله أو أشد منه فى البلاد الإسلامية؟

١٢- السفور شجع على شيوع المخدرات والعقاقير المقوية لخدمة الناحية الجنسية، ورواج الخمور التى تقوم عليها الحفلات الماجنة. وهذا واضح معروف.

١٣- السفور شجع على شيوع الصور العارية ذات الأوضاع المغرية، وهذه الصور دخلت مصر أيام الاحتلال البريطانى، حيث كانت زوجات الجنود ترسل صورهن إليهم، فى أحط الأوضاع، بغية التلذذ بها. وتسربت الصور إلى الجمهور، وهويها الإقطاعيون والأغنياء، ثم مالوا بعدها إلى الصور الحية الفاتنة. ووجدت بعض الخليعات - الفرصة متاحة فاستحضرت ساقطات صورتهن فى صور خليعة، ونشرتها فأغرى بها الأثرياء، وانهالوا على محال أعمالها ليتمتعوا بأصخاب الصور، ثم طبعت مجلات فى باريس بها أوضاع الغانيات الفاتنات من الممثلات، للإغراء بالحضور لمشاهدتهن على الطبيعة[١].

١٤- وكذلك شجع السفور على رواج الأدب المكشوف بقصصه وأشعاره وأغانيه وتمثيلياته، وإخراج مجلات متفننة فى عرض هذا «الأدب» وتأليف كتب فى نظام المقابلات والتحايا والحديث والقبلات والرقص. حتى غطى هذا على كثير من الأدب الحقيقى الجاد، وانصرف الشبان بالذات إليه، وكرم الكاتبون فى هذا المجال لإبداعهم الأدبى كما يقال، وتقول مجلة البوليس المذكورة: إن الإرشادات المتحللة التى فى هذه الكتب كان من أقدمها كتاب «ابن كمال باشا» المعروف بكتاب «رجوع الشيخ إلى صباه» أو كتاب النفراوى[٢].

---

(١) مجلة البوليس عدد ٤٨ فى ٣ مارس ١٩٥٧.

(٢) من كتب الجنس: مفاخرة الجوارى والغلمان للجاحظ، جوامع اللذة لابن نصر، نزهة الأصحاب فى عشرة الأحباب. للسموال المغربى الإسرائيلى، نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب. =

بل افتتحت مدارس فى أوروبا لتعليم ممارسة الجنس، كنادى الأرنب الصغير، المشار إليه، وكمدرسة «فرانكلين» للدراسات المعاصرة التى افتتحت أخيراً فى شمالى لندن، تقدم بين مناهجها الدراسى للبالغين دروساً مسائية عن الجنس، تقدمها الدكتورة «توبى أونيز» وهى أستاذة جامعية فى علم الحيوان، عمرها ٢٩ عاماً، تركت عملها فى المجلس القومى لبحوث البيئة فى لندن، لتؤلف كتباً جنسية، من أشهرها كتاب «يوميات الهوس الجنسى» وتقول «توبى»: إنها سوف تتحدث لتلاميذها عن كل شىء، ابتداء من الفن والأدب الإباحى إلى الدعارة وتبادل الزوجات والأزواج، ويشرف على المدرسة ثلاثة من الأمريكان، ويرأسها رجل أعمال من مدينة «بوسطن» الأمريكية، اسمه «آل توبياس» ويعمل بها ٢٥ مدرساً ومدرسة، يقدمون دروساً فى مائة مادة مختلفة عن الجنس(١).

١٥- كما شجع السفور على الزنى، لكثرة الطرق المؤدية إليه وسهولتها، وترتب على شيوعه ما هو معروف من الآثار الخطيرة، كانتشار دور البغاء، ورواج تجارة الرقيق، وكثرة الأولاد غير الشرعيين، وكثرة حالات الإجهاض للتخلص من الحمل المحرم، وكثرة وأد الأطفال الناتجين عن الزنى، والشك فى عفة المرأة وفى نسب الأولاد، وانحلال القوى نتيجة للإفراط فى الشرب والسهر والاتصال الجنسى، وانتشار الأمراض السرية وغيرها. ولليهود دور كبير فى إفساد الأخلاق عن طريق إثارة الغريزة الجنسية، وفى وصايا التلمود الذى وضعوه تنظيماً

= لأحمد بن يوسف التيفاشى، كتاب الباهية والتراكيب السلطانية، لنصير الدين القدسى، رجوع الشيخ إلى صباه، لأحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا، تحفة العروس وروضة النفوس، للتيجانى، الإيضاح فى علم النكاح، الرحمة فى الطب والحكمة، كلاهما للسيوطى، الروض العاطر فى نزهة الخاطر، للشيخ النفراوى، فى القرن السادس عشر، ألفه لباى تونس حتى ينجى نفسه من القتل، أرجوزة ذات ٢٤٠٠ بيت (نزهة النفوس ودفتر العلم وروضة العروس فى أمور النكاح)، نشوة السكران فى صهباء تذكار الغزلان، أسطنبول ١٨٧٨م لمحمد الصادق حسن خان (هذه المعلومات من كتاب «الإسلام والحياة الجنسية» تأليف / عبد الوهاب بوحديبة بتونس) (مجلة الهداية السنة ٣ العدد ٤ فى يونية ١٩٧٦ فى تونس).

(١) مجلة صباح الخير ٢٥ / ٤ / ١٩٧٤.

لثورتهم على الأخلاق، يجب خلق جيل لا يخجل من كشف عورته، ووسيلتهم فى ذلك شيوع الأفلام الجنسية ونشر البغاء، فأينما وجد البغاء فهو من صنعهم، سواء فى حى السوهو فى لندن، أو حى بيجال بفرنسا أو حى سان باولو فى همبورج. «من كتاب مصطفى محمود – من أسرار القرآن».

وفى جو هذا الانحلال الذى انتشر فى أوروبا تتباهى البنت المخطوبة بأنها غير بكر، وبكثرة من اتصلوا بها، كما يقول «بول بيرو» فى كتابه، وهو كما يقول المودودى، مملوء بالأمثلة القذرة على التحلل والتحرر من قيود الأخلاق.

لقد كان البغاء موجوداً فى عصور قديمة فى تاريخ الإسلام، وإن كان بنسبة ضئيلة تختلف من زمن إلى زمن ومن بيئة إلى بيئة، والمقريزى يقول فى خططه[1]:

إنه فى سنة ٦٦٢هـ فى ٩ من جمادى الآخرة، أمر «بيبرس» بإراقة الخمور ومنع الساقطات من مزاولة البغاء، وحطمت الحانات، وحبست البغيات حتى يتزوجن. اهـ.

وفى سنة ١٨٨٥م فرض الاحتلال الانجليزى على مصر أن تنظم منازل للبغاء، وأن تضع للنسوة سجلاً ونظاماً للعمل، كما هو الحال فى أوروبا، وانتشر البغاء الرسمى والبغاء السرى، وصار تجارة تبناها وأشرف عليها أحد الأغوات فى حرم الخديوى إسماعيل، الذى ترك السراى والتحق بخدمة ثرى سودانى توفى وترك له نحو ألف جنيه وثلاثة منازل، أسس بها تجارة البغاء فى الشرق، وكان اسمه «المغربى» بلغ عدد خدمه الخصوصيين مائة، وكان شبانه وشاباته أكثر من ثلاثة آلاف، ويمتلك من العقار نصف حى «باب الشعرية» وكان مركز نشاطه فى منطقة الجامع الأحمر. عاش راهباً لأنه «أغا» وكان يعاونه فى نشاطه حكمدار القاهرة الانجليزى، والمشرف على بوليس الآداب «سنتى». وامتد نشاطه إلى لبنان وسوريا، وارتدى زى الامبراطور. ووضع على رأسه تاجاً من ذهب وماس. وكان

---

(١) ج١ ص١٦٩، ١٧٠.

الناس يظنونه من الأولياء ويتبركون به. وكانت متعته، مع أنه لا يشرب الخمر ولا يلعب الميسر، هي رؤية جيشه يمارسون العملية أمامه، متجردين من ملابسهم، وكان عمله مرخصاً به لغير القاصرات. ومات مسموماً[١].

صدر الأمر بإغلاق منازل الدعارة الرسمية سنة ١٩٤٩م، بعد أن كان عدد البيوت سنة ١٩٣٨ حوالى ٩٣٠ منزلاً مرخصاً، تحتوى على ٣٣٨٠ امرأة، منهن ٧٣٤ فى القاهرة وحدها. أما النساء غير المرخصات واللاتى يعشن فى الظلام فعددهن كان فى القاهرة وحدها ستة آلاف[٢].

لقد انتشر البغاء فى الغرب وانتشرت معه الآثار الخطيرة، وأتى به إلينا الاستعمار، وما زالت له آثار فى كثير من البلاد الإسلامية. ولما سأل ساسة أوروبا «أحمد وفيق» العثمانى ناقدين مشروعية الحجاب وعدم الاختلاط، قال: السر فى الحرص على الحجاب أن نساءنا لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهن[٣].

وجاء فى مجلة «المختار» عدد نوفمبر ١٩٤٠م: أن نقص عدد الفتيات بالمدارس العليا فى نيويورك يرجع إلى التزام البيت، بمعدل فتاتين كل شهر، نتيجة الحمل بدون زواج، وأن نصف الأطفال غير الشرعيين الذين ولدوا فى العام الماضى وعددهم ثمانون ألفاً، قد ولدوا من فتيات تتراوح أعمارهن بين ١٥، ١٩ سنة، وأن حوادث هتك الأعراض تزداد، والأمراض السرية تزداد وطأتها بين الصغار.

وتشير الإحصاءات الرسمية وتقارير منظمة الصحة الدولية إلى أن الأمراض التناسلية، ومرض السيلان بوجه خاص، تنتشر بنسبة عالية فى مختلف أنحاء العالم، وأنه أصبح من غير الممكن السيطرة على انتشار السيلان. وعلى سبيل المثال فإنه يجرى فى الوقت الراهن علاج طفل أمريكى فى الخامسة من عمره من مرض تناسلى، انتقلت إليه العدوى من طفلة فى التاسعة من عمرها. وقد بلغت ظاهرة انتشار الأمراض التناسلية ذروتها فى الولايات المتحدة[٤].

---

(١) مجلة البوليس عدد ٤٨ فى ٣ مارس ١٩٥٧.

(٢) الأهرام ٢١/١١/١٩٥٩.

(٣) مجلة النذير عدد ٢٢٦.

(٤) الأهرام فى ٣٠/٢/١٩٧١م.

وجاء فى أهرام ١٦ / ١٢ / ١٩٧٠ ما ملخصه :

أذاعت فى يوم الثلاثاء ١٥ / ١٢ / ١٩٧٠ خمس عشرة دولة وإمارة عربية توصياتها للقضاء على ظاهرة البغاء ومكافحته. وكانت قد اشتركت هذه الدول فى ندوة علمية عربية، نظمتها «المنظمة الدولية العربية للدفاع الاجتماعى» بالاشتراك مع المكتب الدولى العربى لمكافحة الجريمة، والتى بدأت يوم الأحد الماضى فى القاهرة بمقرها فى الجامعة العربية، وهى اثنتا عشرة توصية منها :

١ ـ تحقيق الإلغاء الشامل للبغاء المنظم فى الو عربى.

٢ ـ إجراء بحوث ميدانية حول البغاء فى الوطن العربى، وأفضل الوسائل للوقاية منه ومكافحته .

٣ ـ تأهيل مرتكبى البغاء، وعدم الاعتماد على العقوبات وحدها.

٤ ـ اعتبار الإيداع فى مؤسسات التأهيل تدبيراً مفيداً.

٥ ـ إنشاء مؤسسات للوقاية أو أى تدابير وقائية أخرى.

٦ ـ مساهمة أجهزة الإعلام فى تربية النشء العربى، والحد من عرض كل ما يثير الجنس، وإدخال بعض برامج التوعية الدينية والاجتماعية والصحية فى دور التعليم.

٧ ـ تشديد الرقابة على الكتب والمنشورات والأفلام والمسرحيات وغيرها عن طريق هيئة رسمية للرقابة فى كل دولة تضم عدداً من المختصين ورجال الدين وعلم النفس والاجتماع والطب والفنون .

٨ ـ تخليص السياحة، على الرغم من أهميتها، من كل ما يساعد على البغاء.

٩ ـ القيام بعمل إجراءات لملاحقة الخارجين عن حماية الأخلاق.

هذا، ويلاحظ أن هناك اتفاقية دولية بشأن إلغاء الاتجار فى الأشخاص واستغلال دعارة الغير، موقعة فى «ليك سكسس» سنة ١٩٥٠م.

وقد اشترك فى هذه الندوة : السودان، العراق، السعودية، سوريا، ليبيا، مصر، اليمن، الكويت،لبنان،المغرب، قطر، إمارات أبو ظبى والبحرين ودبى .اهـ.

وجاء فى جريدة الشعب ٢٥ / ٢ / ١٩٥٨م: نشرت مجلة «مكولنر» الأمريكية مقتطفات من تقرير عن الحمل والولادة والإجهاض فى أمريكا، وهو أول تقرير يضعه معهد الأبحاث الجنسية بجامعة «انديانا» منذ وفاة مؤسسه الدكتور «الفرو كينسى» صاحب كتابى «السلوك الجنسى لدى الرجل» و«السلوك الجنسى لدى المرأة». جاء فى التقرير: أن واحدة من كل عشر سيدات أمريكيات تحمل قبل الزواج، وأن حالات الحمل هذه، ما لم تؤد إلى الزواج السريع، تنتهى بالإجهاض الصناعى، بنسبة ٨٩٪ وإلى الولادة غير الشرعية بنسبة ٦٪ وإلى الإجهاض الطبيعى بنسبة ٥٪.

وأضاف التقرير أن من بين جميع النساء الأمريكيات اللائى على قيد الحياة الآن، وتقع أعمارهن فى الفترة الصالحة للحمل: من بين هؤلاء جميعًا واحدة فى كل سبع تعرضت، أو ستتعرض لإجهاض صناعى قبل الزواج، وأن معظم السيدات غير المتزوجات اللاتى تعرضن للإجهاض يباشرن العلاقات الجنسية بعد ذلك، ولا يتوقف عن ممارستها سوى ٣٪. وأضاف التقرير: أن ١٩٪ فقط من السيدات اللائى يحملن قبل الزواج يتزوجن أثناء الحمل. ولكن نصف هذه الزيجات يمنى بالفشل.

وأضاف التقرير أيضًا: أنه كلما كانت المرأة متدينة صارت أقل تعرضًا للحمل قبل الزواج «نيويورك. ى. ب – أ.ب».

وجاء فى أهرام ٣٠ / ٧ / ١٩٦١ أنه فى سنة ١٩٥٩م ولد ٢٢١ طفلاً غير شرعى فى الولايات المتحدة، أى بنسبة ٥٢ طفلاً فى كل ألف طفل.

ومن هنا كما جاء فى أهرام ١١ / ١ / ١٩٦٨، كانت تجارة الإجهاض ثالث تجارة فى أمريكا بعد القمار والمخدرات، كما صرح بذلك دكتور «آلان جوتماشير» رئيس اتحاد تنظيم الأسرة فى أمريكا الذى قال: إن مليون عملية إجهاض غير شرعى حدثت فى العام الماضى. اهـ.

وجاء أيضًا فى أهرام ١٦ / ١١ / ١٩٦١ من لندن: يزيد عدد الأطفال غير الشرعيين فى أوروبا زيادة مطردة، فقد جاء فى التقرير الطبى السنوى الذى أذيع أمس، أن عدد الأطفال الذين يولدون من أمهات غير متزوجات قد تضاعف فى خلال عشر سنوات فى لندن. وأن من بين كل عشرة مواليد فى العام الماضى هناك مولود واحد غير شرعى. وجاء من «أوترخت» أن متوسط عدد المواليد غير الشرعيين فى هولندة أصبح ثلاثة آلاف فى السنة، وأن عدد الأمهات الصغيرات غير المتزوجات قد تزايد بدرجة مزعجة.

وفى أهرام ٤ / ٣ / ١٩٦٣: أصدرت الحكومة البريطانية تقريراً رسميًا جاء فيه: أن نسبة المواليد غير الشرعيين قد زادت فى بريطانيا. وأعلن التقرير أن معظم الأمهات غير المتزوجات تتراوح أعمارهن بين ٢٠ سنة، ٢٤ سنة، وأن ٩٪ من مجموع المواليد فى مدينة «بريستول» الصناعية أبناء غير شرعيين، وأن ١٣ من بين كل ٤٠ أما غير متزوجة من طالبات المدارس.

وفى أهرام ٢٩ / ١٢ / ١٩٦٢: ظهر فى تقرير صدر فى لندن أمس أن طفلاً من بين كل ٨ أطفال ولدوا خلال العام الماضى فى لندن غير شرعى.

وجاء فى أهرام ٢١ / ١٢ / ٩٦٤: أنه تم وضع مشروع فى الدانيمارك بعدم جعل الخيانة الزوجية مبررة لطلب الطلاق.

وفى أهرام ١٧ / ١٢ / ١٩٦٩: فى «براكتل» بانجلترا أن رجلاً طعن آخر لأنه اكتشف علاقته بامرأته، فأنبه القاضى ووصفه بأنه عتيق الفكر، يجب أن يعتاد وجود صديقه مع زوجته، لأنه فى عام ١٩٦٩م.

إن الأجانب أنفسهم يشكون من أخطار السفور، يقول الدكتور «جراهام بكين» مدير عيادة علم النفس فى جامعة «هارفارد» الأمريكية: إن الدراسات التى أجراها عن علاقات الطلبة فى «جامعتى هارفارد، رادكليف» أوضحت زيادة خطيرة فى نسبة الطالبات اللاتى فقدن عذريتهن. وقال: إن هذه النسبة كانت سنة ١٩٣٨م نحو ٣٥٪ وأنها أصبحت عام ١٩٥٣ حوالى ٥٠٪. ويقول الخبر:

إن الدكتور لم يذكر كم أصبحت النسبة في دراسته الأخيرة، التي أسماها: العلاقات الجنسية في مرحلة انتقال. مكتفيًا بقوله: إنها زادت، وأن الدراسة تدل على أن الاتجاه إلى إقامة علاقات جنسية بين الطلبة قبل الزواج يزداد بشكل واضح، وأنه يعكس تغييرًا اجتماعيًا في الولايات المتحدة «أهرام ٢/١١/١٩٦٣».

وجاء في المصدر نفسه أن المتاعب نشأت من السماح للسيدات بزيارة عنبر نوم الطلبة، مما كان يعتبر ميزة لطيفة قبل أن يساء استغلالها لتحويل غرف الجامعة إلى أماكن تتم فيها عمليات جنسية.

وفي تقرير خبراء السويد أن السويد تنحدر إلى كارثة اجتماعية، بسبب زيادة العلاقات الجنسية بين المراهقين «أهرام ٣/٢/١٩٦٤م».

١٦- شجع السفور على قيام جمعيات وتنظيمات تطالب بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق العامة، بل فيما ليس من اختصاصهن، وسيأتي بيان ذلك وافيًا في الباب الخاص.

١٧- كما ساعد السفور على تدخل المرأة في الشئون العامة، ودس أنفها في كل ركن من أركان الحياة، بل محاولتها مزاحمة الرجل في ميادينه التي أعده الله لها، واستغلال أنوثتها في قضاء مآرب كثيرة أثرت على البرنامج الصحيح للسلوك.

وإذا كانت المرأة، وهي في حشمتها وأدبها، تؤثر على الرجل، كما سبق بيانه في خطر الفتنة، فكيف بها لو كانت سافرة متبرجة، تتحدث مفاتنها فيلبى الرجل وتخضع كل جوارحه؟

يقولون: إن ابن الزبير كانت له حاجة عند معاوية، فاستشفع له ببعض نسائه فقضيت. فعير بذلك فقال: إذا تعذرت الأمور من أعاليها طلبناها من أسافلها. وقال الفرزدق:

أما البنون فقد ردت شفاعتهم وشفعت بنت منظور بن زبانا
ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا[1]

وقال ابن بسام فى رجل تقدم أمره بسبب امرأة:

نلت ما نلت يا دنىء بأم هى أعطتك رؤية الأمراء
فإذا عُدَّت الصنائع يوما كنت فيها صنيعة البَظْراء[2]

يقول الكاتب الانجليزى «دوجلاس» فى المجلة العلمية لجامعة كمبردج، تحت عنوان «الرجعية النسائية فى أمريكا»: إن المرأة الأمريكية، بحكم مساواتها للرجل واختلاطها به، تدير عصابات المجرمين السفاكين، ولا ترهب القانون، وتعمل وتسهر كما تشاء، وتندفع وراء الشهوات والموبقات، وتغرى الشبان إغراء مباشراً على ارتكاب الجرائم فى سبيل حبها، وتنشر الرذائل والفساد فى كل الأوساط. ثم تساءل: أليست هذه رجعية تعود بالمدنية إلى الوراء، بل أليست هى فوضى أخلاقية تستغلها المرأة باسم الحرية؟[3].

وفى مجلة رابطة الإصلاح الاجتماعى، عدد أكتوبر ١٩٤٦، يقول الكاتب الإنجليزى «سير شارلس جارنس»: منذ عهد غير بعيد كان الرجل فى إنجلترا حراً فى إنفاق مال زوجته كله، وفى عرض زوجته فى الأسواق ليبيعها لمن يشاء، والتنازل عنها لرجل غيره مقابل بضع كؤوس من الخمر. ويقول: لا يصح للمرأة أن تساوى الرجل، فهى خلقت لتكون أنيسه، وهى بطلبها المساواة تتنكر لأصل خلقتها، فمشكلة حق الرجل على المرأة تقررت منذ الأزل فى الجنة قبل هبوط آدم إلى الأرض.

وفى كتاب «مرآة النساء فيما حسن منهن وساء» لمحمد كمال الدين الأدهمى: حديث عن الخيزران زوجة المهدى وأم الهادى والرشيد من خلفاء

(١) محاضرات الأدباء للأصبهانى ج١ ص٣٥٢.
(٢) المرجع السابق ص١٤٤.
(٣) مجلة الحج - رمضان ١٣٧٦هـ.

العباسيين، وفيه أنها تدخلت بعد موت زوجها مع الهادى فى شئون الحكم. ثم نهاها عن ذلك لكثرة المتوسلين إليها، وقال لها، كما فى النجوم الزاهرة ج٢ ص٦٤ ونقله عمر كحالة فى أعلام النساء: أمالك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملى أو ذمى. ثم أراد أن يقتلها بطعام مسموم وهو الأرز، لكنها شكت فيه فأطعمت منه كلبًا فمات. فدبرت هى قتله، فقتله الجوارى.

وفى محاضرات الأدباء « ج٢ ص١٢٩ » إنها كانت وضعت سمًا فى بعض الخزائن وكتبت عليه: من تناول منه وزن دانق أعانه على الجماع. فلما ظفر به تناوله فمات فى مكانه.

وظاهرة غزو المرأة للمجتمع لها خطرها الذى لا ينكره أحد، ولقد حدث قديمًا أن الرومان فى عهد الامبراطورية أباحوا لها غشيان المجتمع، فكان خطرها جسيمًا تقدمت الإشارة إليه. ويقول محمد فريد وجدى فى كتابه عن المرأة المسلمة، وهو يحلل هذه الظاهرة عند الرومان: أنه لما امتد ملكهم وداخلهم الترف الذى لم يتم إلا باختلاط الجنسين وسفور المرأة حتى ملكت زمام السياسة وفسد المجتمع. فماتت همم الرجال، وخارت عزائمهم، تحولت أفكارهم، وفهموا أن المرأة هى سبب ذلك الفساد فعاملوها بما تستحق.

وفى كتاب « مرآة النساء » ص١٣٩ : إن رجال جمعية الاتحاد والترقى الذين كانوا قابضين على زمام الحكومة التركية قلدوا « كاترين » زوجة بطرس الأكبر قيصر روسيا المتوفى سنة ١٧٢٥م فى اختلاط الجنسين، فبعثوا من « سلانيك » نساء يسمين « الدونمة » وهن من يهود بلاد الروملى، الذين كان السلطان عبد الحميد قد حرم عليهم الخروج من بلادهم والدخول إلى استامبول إلا بشروط قاسية، فاحتالوا وأظهروا الإسلام ليتمكنوا من الدخول، وسموا أنفسهم « الدونمة » أى المهتدين، وكان لهم نفوذ فى أيام الاتحاديين بعد إعلان الحرية سنة ١٩٠٨م، حتى سبب فسادهم قيام الجمهورية، وبوساطة تدخلهم كثرت

السرقات والخيانات والفحش والخراب الذى ضجت منه البلاد. وهؤلاء النسوة المجلوبات وجدن قبولاً من السفلة فاتسع نطاق الفجور بسببهن[1].

١٨- السفور جعل الناس يستغلون المرأة فى مآرب كثيرة، فى الصحف وأفلام السينما ودور التمثيل، والإذاعات المسموعة والمرئية، وفى الإعلان عن البضائع وجذب العملاء للتعامل مع المتاجر والمؤسسات، واستخدامها فى المرافق العامة المتنوعة كبائعات وعاملات فى الفنادق ومضيفات فى الطائرات وصارفات للتذاكر، وجمع التبرعات للأعمال التى تلبس لباساً خيرياً، وغير ذلك من المآرب.

ومن أخطر الميادين التى استخدمت فيها المرأة الميادين السياسية والحربية فى التجسس وتدبير المؤامرات، وقد تقدم نشاط اليهود فى هذا المجال، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة.

١٩- وأخيراً وليس آخراً، يشكل السفور خطراً كبيراً على الأمن، بما يسببه من احتكاك بالنساء وشيوع المخدرات وإطالة السهر والاضطرار إلى السرقات والاختلاسات لتوفية مطالب المتعة، وانحلال الأسرة وكثرة مشاكلها، وسهولة الطلاق والزواج من أخرى، وما يتبع ذلك من هتك للأعراض وحوادث قتل من أجل الشرف والتخلص من العار، إلى غير ذلك من حلقات السلسلة الطويلة المترتبة على عدم صيانة العرض وعدم التزام الحجاب الشرعى الكامل.

وقد قرر الدكتور العباسى الصلة القوية بين الجريمة والعوامل الجنسية، كما وضحه فى العدد ١٨٣٤٩ من جريدة الأهرام فى ١٧ شوال ١٣٥٤هـ. وسيأتى مزيد توضيح لكثرة الفساد بسبب عمل المرأة خارج بيتها، وإهمالها المطالب الرئيسية التى خلقت من أجلها.

---

(١) يتحدث الكثيرون عن السيدة الأولى ذات الشخصية القوية والأثر البعيد فى سياسة «فيتنام الجنوبية» وهى «مدام نودين نو» زوجة أخى رئيس الجمهورية، التى يخافها الشعب، وقد ثاروا ضدها، وسنها ٥٨ سنة، وهى عضو فى المجلس القومى، ورئيسة النشاط النسائى، وتعتبر، بطريق غير رسمى، قائداً أعلى للجيش ورئيسة الوزراء، بل حاكمة على رئيس الجمهورية الذى يخضع لأوامرها غالبا.

ولخطرها الشديد طلبت أمريكا من رئيس الجمهورية عدم تدخلها فى السياسة، وجاء أيضا أن هذه البلاد شهدت قيادات وزعامات نسائية سابقة، ففى القرن الأول بعد الميلاد قادت أخوات «ترانج» الثورة ضد حكام فيتنام الصينية، وأنجبت واحدة منهن طفلا وهى فى ميدان القتال، ولم تكف عن الحرب ضد الصين. وفى سنة ٢٤٨م قادت فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها جيشا كاملا ضد المستعمرين، وهى على ظهر فيل «الأهرام ١٧/٨/١٩٦٣».

الفصل الرابع

عـــلاج السفـــور

والآن وبعد أن شخصنا الداء وعرفنا آثاره وأعراضه، نريد أن نتعرف على العلاج الذى يناسبه، بحيث نرد المرأة والرجل معًا إلى حظيرة الشرف والعفة والأدب والكمال.

الواقع أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال، والإحساس بالمرض يحمل على التفكير فى علاجه، فإذا شعر الفرد والمجتمع بخطورة السفور أمكن أن يؤخذ بأيديهم إلى العلاج، ولكن المؤلم أن السفور أصبح عند كثير من الناس مظهرًا أكيدًا من مظاهر التمدن والرقى الذى يسيرون حتمًا فى طريقه، ولا يستطيعون أن يتخلوا عنه، فهم يعدونه ضرورة حتمية، ويرددون أن المجتمع أقوى من فكر الإنسان، بمعنى أن التيار العام الجارف لا يستطيع أحد أن يقاومه، وكما سبق بيانه حاول الناس تبريره، وجرءوا حتى أرادوا أن يطوعوا له الدين حتى يكون مؤيدًا لهم، رامين علماء الشريعة بالجمود وعقم الفهم، وإذا صار المنكر معروفًا والمعروف منكرًا أوشك أن يرميهم الله بفتنة تدع الحليم حيران.

وقد رأينا الأسباب الداعية إلى السفور والمشجعة عليه، والواجب أن يكون العلاج سدًا لهذه المنافذ وقطعًا لهذه الأسباب. ولكل منها ما يناسبه ويصلحه، والعلاج فى نظرى يتلخص فى: التوعية الصحيحة، وتقوية جبهة المقاومة للمنكر، أى فى العلم والعمل، أو التشريع والتنفيذ. وبيانه:

١ – أن تكون التوعية قائمة على أساس تفهيم الناس لحدود الحجاب الشرعى كما هو وارد فى النصوص بدون إفراط ولا تفريط. وبالشكل الذى لا يكون فيه تعسف فى التأويل إذا كان هناك مجال للتخفيف، بشرط ألا يتعارض مع المقصود العام من التشريع، وهو منع الفتنة وتطهير المجتمع من الفساد، وصيانة المرأة والرجل من الانزلاق إلى السوء، وارتكاب أخف الضررين، وأولوية درء المفاسد على جلب المصالح.

كما تكون التوعية ببيان خطر السفور ودحض مبرراته، وبالنعى على التقليد الأعمى والجرى وراء كل جديد، وبالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتق الخارجين على حدود الدين، وعلى المساعدين لهم والساكتين عن وقفهم عند حدود الآداب المشروعة.

والدين له أثره الكبير فى تهذيب النفوس وبعدها عن المتع البهيمية وصرفها إلى المتع الروحية وتعلقها بالآخرة أكثر من الأولى، وهذا أمر بدهى يشهد له واقع المجتمع الإسلامى فى الماضى والحاضر.

ذكروا أن خوات بن جبير كان قبل إسلامه مفتوناً بالنساء ومعاكستهن وهو صاحب «خولة» ذات النحيين[1] التى تحايل عليها حتى أمسكت بكلتا يديها وعاءى السمن ثم تعدى عليها وهى عاجزة عن دفعه خشية أن يراق منها السمن، وهى امرأة من بنى تيم الله بن ثعلبة، ينتهى نسبها إلى بكر بن وائل.

وبعد أن أسلم خوات سأله النبى ﷺ عنها، فقال، وقد تبسم، يا رسول الله قد رزق الله خيراً، وأعوذ بالله من الحور بعد الكور[2].

ويروى أنه قال له: ما فعل بعيرك الشارد؟ فقال: قيده الإسلام يا رسول الله، وقيل فى هذا البعير الشارد، أنه مر فى الجاهلية بنسوة فأعجبه حسنهن، فسألهن أن يفتلن له قيداً لبعير له زعم أنه شارد، وجلس إليهن بهذه العلة. فمر به النبى ﷺ وهو يتحدث إليهن، فأعرض عنه. فلما أسلم سأله عن ذلك البعير الشارد، وهو يبتسم له، فقال خوات: قيده الإسلام يا رسول الله «الروض الأنف» ج٢ ص٩٦. «وأسد الغابة» فى ترجمته، وجاء فيها أن جلوسه مع النسوة كان بعد الإسلام فى مر الظهران، وحكاية «ذات النحيين» فى مجمع الأمثال للميدانى.

---

(١) النحى وعاء يوضع فيه السمن ونحوه، وأكثر ما يكون من الجلد «زق».

(٢) قيل: معناه: من النقصان بعد الزيادة، أو من فساد أمورنا بعد صلاحها، وأصله من نقض العمامة بعد لفها. يقال: حور العمامة إذا نقض ليها. ويروى: أعوذ بالله من الحور بعد الكون، أى الرجوع عما كان على حالة جميلة. وقيل معناه، نعوذ بالله من الرجوع والخروج عن الجماعة بعد الكور أى بعد أن كنا فى الكور أى الجماعة: يقال: حار عمامته إذا نقضها، وكار عمامته على رأسه إذا لفها «لسان العرب».

كما أن الدين يؤنب من أخطأ ويمنعه العود إلى المعصية، وقد تقدمت قصة أبى اليسر وآية ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ فى قبلة اختلسها من أجنبية. كما روى أن ثعلبة بن عبد الرحمن أرسله النبى ﷺ فى حاجة، فلمح امرأة أنصارى تغتسل، فكرر النظر إليها، ثم أحس بذنبه، فغاب عن النبى ﷺ هائماً فى الوديان، حتى دل جبريل عليه النبى ﷺ فطلبه «أسد الغابة – ترجمته».

والذى يقوم بمهمة التوعية هو كل من يأنس فى نفسه القدرة عليها، ولا يشترط أن يكون من العلماء الرسميين المنوط بهم حفظ الشريعة والدعوة إليها، بل يستطيع ذلك من فقه الحكم فقهاً صحيحاً سليماً، وأمكنه أن يدعو إليه بحكمة، وبهذا يمكن لكل فرد فى الأمة عنده هذا الاستعداد أن يقوم بواجب التوعية، ولا يعتذر عن القعود عنها، ملقياً التبعة كلها على أفراد مخصوصين، أو هيئات معينة.

كما ينبغى أن يسد الباب فى وجوه المتطفلين على الدعوة الإصلاحية، المقحمين أنفسهم وسط المختصين أو المجيدين لها، ومن هؤلاء كتاب الصحف والباحثون الاجتماعيون الذين لا يفقهون تعاليم الدين، ويفتون الناس بغير علم، مستوحين أفكارهم من الغرب وأمثالهم من المجددين، فهؤلاء يضلون ويضلون من حيث لا يشعرون أو يشعرون.

وكل إنسان يستطيع أن يكون عنده وعى كامل بهذه الأحكام، والوسائل إلى ذلك كثيرة، منها قراءة الكتب المعتمدة، والمجلات المتخصصة، وسماع المحاضرات والإذاعات وخطب الجمع، ومنها توجيه الوالدين والأصدقاء. وتقليد الصالحين.

ومن المؤكد أن القدوة تفيد فى هذا الموضوع، لأنها توعية صامتة، بل هى فى نظرى توعية ناطقة بأعلى صوت وأقواه تأثيراً، لا فى الأسماع بل فى العقول والقلوب، فإذا كان المنادى بالتزام أدب الدين فى الحجاب قدوة فى التزامه أسرع الناس إلى الاستجابة إلى توجيهاته وإلى تقليده، مؤمنين بأن ما يدعو إليه حق.

أما إذا كانت دعوة الداعى فى واد وسلوكه فى واد آخر فمن المؤكد أو من الظن الراجح أن دعوته لا يستجاب لها، وذلك لشك الناس فى صدقها، نتيجة لعدم ثقة الداعى فى فائدتها.

٢ - أما تقوية جبهة المعارضة والمقاومة للمنكر، فتكون بقيام كل فرد بواجبه فى هذا المجال، وهو إنكار السفور وتغييره، وذلك ليكتمل جناحا الدعوة، وهما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد تحق الشق الأول بالتوعية، التى فيها أيضًا إنكار للمنكر باللسان، فليتحقق الشق الثانى بما هو أقوى من اللسان، أو بغيره من الأسلحة.

وإنكار المنكر يكون بالوسيلة التى بينها الحديث الشريف «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى.

والذين يستطيعون ذلك هم الذين أمكنهم أن يقوموا بواجب التوعية، كل فى المجال الذى يخصه، وبالقدر الذى يحسنه، فالذى يستطيع الإنكار باليد دون حدوث مضاعفات أخطر هم أولو الأمر، أى المسئولون عن رعاية المجتمع، لأن لهم من القوة والسلطان ما يمكنهم من مباشرة ذلك، وستكون الاستجابة سريعة، وهذا الإنكار يكون بمثل العقوبات البدنية والغرامات المالية على المخالفين، كما يمكنهم الإنكار باللسان بوساطة أجهزتهم المختلفة، وعند هذه الأجهزة استعدادات كبيرة تيسر هذه المهمة بالنسبة إليهم.

والواقع أن قوة السلطان ورهبته لهما أثرهما البالغ فى تقويم الإنسان ففى يده ركنا الدعوة وهما الترغيب والترهيب، أو القول والعمل، إلى جانب المسئولية الضخمة الملقاة على عاتق ولى الأمر. وإلى جانب أمر الله للرعية بوجوب طاعته فى كل خير يحقق السعادة للجميع، والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[١].

---

(١) فى أهرام ١٨/٩/١٩٦٢: أن القاضى بمحكمة المنيا الجزئية «عبد الحميد حمزة» اقترح تغريم كل سيدة أو فتاة لا تستر ذراعيها وساقيها فى الطريق العام خمسة جنيهات وقدم اقتراحه إلى نائبى رئيس الجمهورية: كمال حسين وحسين الشافعى وإلى أنور السادات، فأين أثره.

لكن حكام اليوم محتاجون إلى قانون يحرم السفور حتى يحق لهم تنفيذه، فقانونهم الوضعى يحميه لأنه من الحريات الشخصية، ومن هنا لا يرجى منهم خير ما داموا لم يحكموا بما أنزل الله. لكن هناك من أولى الأمر من يستطيعون تغيير المنكر دون عقابيل، وهم الأزواج والآباء والأمهات والأخوة ومن لهم ولاية شرعية على غيرهم كالأوصياء، وكذلك رؤساء المصالح والمربون والمشرفون على دور التعليم، فهؤلاء وأمثالهم يستطيعون حمل البنات على الحجاب وإرغام الزوجات والأخوات والعاملات والطالبات عليه، ومباشرة العقاب على من تخالف الآداب، وذلك باليد وباللسان معًا، وهؤلاء أشد تأثيراً فى الإصلاح من غيرهم، لأنهم المباشرون والمطلعون والمراقبون عن قرب، ولحاجة من تحت أيديهم إليهم. فتقويم هؤلاء للبنات والنساء عامة أسرع وآمن وأحفظ للكرامة والشرف.

أما غير هؤلاء من بقية أفراد الشعب فقد يعجزون عن الإنكار باليد إذا خيف منه فتنة أو ضرر، وبخاصة إذا كان القانون فى صف المخالفة للشرع. فلينكروا باللسان إن استطاعوا، وإلا فبقلوبهم التى يجب أن تتأثر لرؤية المنكر، وتمتعض لوجوده، وتعمل على عدم ترويجه بأية وسيلة، ومقاطعته بكل ما يمكن من المقاطعة. وهذه المقاومة السلبية سلاح يفيد كثيراً إذا أحكم استعماله، وله شاهد من الشرع، فقد أمر النبى ﷺ الصحابة بمقاطعة من تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وشعروا تمامًا بخطئهم وتابوا فتاب الله عليهم.

إن أولى الأمر العامين، كما قلت، مسئوليتهم جسيمة، وأثرهم فى تطهير المجتمع من الفساد كبير. ومن أهم ما يجب عليهم فى هذا المقام هو تحديد القوانين التى تحمى الحريات، وتقييدها بما لا يصادم الشرع، وتحديد الآداب على ضوء الدين، لا على ضوء ما ينقل عن الغرب أو البيئات غير الإسلامية، أو العرف السيء.

وعليهم أن يطهروا الأجهزة المختلفة من الاتجاهات المنحرفة التى تؤثر على

هذه الناحية، فتمنع الأغانى الخليعة والتمثيليات الهادفة إلى غرض سيء، والصور الفاضحة والبرامج الأخرى التى تدعو إلى فكر لا تتناسب مع الدين والأخلاق. وكذلك الحفلات المختلطة وما إليها.

والواجب أيضًا التنبه إلى الكتب التى تترجم عن الغرب وتتعرض لموضوع المرأة، فكتابها قوم يفلسفون السفور ويلتمسون له مبررات نفسية[1].

وبعد وضع هذه القوانين يجب أن تكون هناك رقابة شديدة على تنفيذها، وأن تكون هناك تشريعات تحمى من الخروج عليه. وأن تكون الرقابة على يد مؤمنين ذوى غيرة على دينهم ووطنهم، معروفين بالعفة والنزاهة، كما كان عليه نظام المحتسب فى العهود السابقة.

وكذلك يجب تمكين جهاز المراقبة من مباشرة عمله وحمايته من الأخطار، وسرعة إنجازه لمهمته، ولعل من المفيد فى ذلك أن تعطى لهم صفة قانونية بتحرير المخالفات وتوقيع العقوبات العاجلة على المخالفين، وكانت هذه المهمة من ضمن ما يقوم به المحتسب. فقد كان مشرعًا ومنفذًا فى وقت واحد، أو على الأصح كان عالمًا بالشرع مطبقًا له، وكان هذا فى الأمور الظاهرة، وقد أراح الدولة من عناء كبير، وعجل بالفصل فى المنازعات، وإليك بعض ما ورد عن نشاط المحتسب:

يقول الماوردى فى كتابه «الأحكام السلطانية» ص٢٤٩، ٢٥٠: إذا رأى وقفة رجل مع امرأة فى طريق سابل لم تظهر منهما أمارات الريب لم يعترض عليهما بزجر ولا إنكار، فما يجد الناس بدا من هذا، وإن كانت الوقفة فى طريق خال فخلو المكان ريبة، فينكرها ولا يعجل بالتأديب عليها، حذرًا من أن تكون ذات محرم. وليقل: إن كانت ذات محرم فصنها عن مواقف الريب. وإن كانت أجنبية فخف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى، وليكن زجره بحسب الأمارات... إلى أن قال: فإذا رأى المحتسب فى هذه الحال ما ينكره تأنى وتفحص وراعى شواهد الأحوال، ولم يعجل بالإنكار قبل الاستخبار.

---

(١) انظر كتابى «الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه» ص ١٢٠ وما بعدها.

وكما قلت لا يكفى التشريع وحده، بل لا بد من التنفيذ والرقابة الدقيقة عليه. فكثيراً ما توضع القوانين ثم تهمل، أو تنفذ بطريقة هزيلة لا تؤدى إلى الغرض المقصود. وقد رأينا كيف كان النبى ﷺ يغير المنكر فى حينه، عندما لوى عنق الفضل بن العباس وهو ينظر إلى المرأة، وكيف كان عمر شديد الرقابة فى هذا المجال. فكان يضرب على تزاحم الرجال مع النساء فى أماكن الوضوء وفى الطواف، وخصص وقتًا لطوافهن، وبابًا لدخول المسجد.

وقد مر أن النبى ﷺ كان ينصح النساء عند الخروج من المسجد بعدم اختلاطهن بالرجال، فيقول: «استأخرن فليس لكن أن تحققن الطريق». وروى عن أنس أنه قال: مر النبى ﷺ مرة بالطريق، وأمامه امرأة، فقال لها «تنحى عن الطريق» فقالت: الطريق واسع. فقال: «دعوها فإنها جبارة»[1]، وسيأتى نفى عمر لنصر بن حجاج الذى فتنت به نساء المدينة.

ومر معاوية بن أبى سفيان بالمدينة فرأى نساءها قد اتخذن الخرق فى شعورهن للزينة، بل اتخذن شعراً مستعاراً فخطب فى المسلمين ناعيًا على العلماء غفلتهم عن هذا المنكر. محذراً المسلمين من التهاون فيه، فإن هلاك بنى إسرائيل كان بسببه.

أخرج مسلم «ج١٤ ص١٠٨» عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع معاوية ابن أبى سفيان عام حج وهو على المنبر، وتناول قصة من شعر كانت فى يد حرسى، يقول: يأهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه، ويقول «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم». يقول النووى: فى حديث معاوية هذا اعتناء الخلفاء وسائر ولاة الأمور بإنكار المنكر وإشاعة إزالته، وتوبيخ من أهمل إنكاره ممن توجه ذلك عليه.

وذكرت «سميحة طاهر» أن المرأة فى أيام الفاطميين والمماليك إذا ظهر شىء من شعرها أو عنقها أو ساقها يغرم زوجها غرامة تتناسب مع القدر المكشوف «أخبار اليوم ٦ / ١٠ / ١٩٧٣».

---

(١) كشف الغمة ص٩٥.

إن الأزواج والآباء، كما قلت، عليهم مسئولية كبيرة، وتغييرهم للمنكر ميسور، وهو ليس مسئولاً فقط عن غذاء زوجته وبناته بل مسئولاً أيضًا عن التربية والتهذيب. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾[التحريم:٦]، والذى يقر الفساد فى أهله سماه الرسول ﷺ ديوثًا. فعن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء» رواه النسائى والبزار والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد. والديوث هو الذى يعلم الفاحشة فى أهله ويقرهم عليها «الترغيب ج٣ ص٣٧». وبسط مسئولية الآباء عن الأولاد، والأزواج عن الزوجات موجود فى الجزأين الثالث والرابع من هذه الموسوعة، وسترى هناك حديث عبد الله بن مسعود الذى رواه مسلم «ج١٤ ص١٠٥» لما نهى عن وصل المرأة شعرها، واعترضت عليه أم يعقوب بأن زوجته تصل، وأنكر ذلك، وقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها. معنى ذلك أنه يقوم بواجبه فى تهذيب الأخلاق بصورة عملية ليست قاصرة على مجرد النصح باللسان.

وإذا تهاون الزوج أو الوالد فليكن للزوجة والبنت وازع من ضميرها ودينها، فإن سكوت المسئول عنهما لا يبرر عصيانهما، ومن المؤلم أن بعض الأزواج قد ينتكس فهمهم وينتكس سلوكهم، فيرغمون زوجاتهم على السفور للسير بهن فى ركب التمدن. وفى هذا المسلك طعن فى غيرته ورجولته، كما يحدثنا ابن بطوطة عن نساء «أيوالاتن» فى آخر الكتاب.

والفرد من عامة الشعب لا يجوز له أن يتملص من المسئولية، ويدع السفور ينتشر، بل عليه واجب بقدر ما يستطيع، إن لم يكن باليد فباللسان أو القلب. وينبغى أن يكون إنكاره بالحسنى، بحيث لا يؤدى إلى فتنة، خصوصًا إذا علم أن القانون يحمى السافرة ولا يحميه. وليس له أن يباشر الإنكار باليد من باب أولى فى هذه الحالة. فهو من اختصاص ذوى السلطة الرسمية.

ولا بد من تعاون الأجهزة كلها، ومن اشتراك جميع الهيئات والطوائف فى مقاومة المنكر، فكما يقول الحديث الشريف «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته» رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر. ولا يفيد أبدا أن يقوم البعض بواجبه ويسكت البعض الآخر، أو ينقلب إلى داع إلى الفتنة محرض عليها، وهؤلاء خطرهم كبير. فإمكانياتهم واسعة والقوانين الوضعية تسندهم، بل تشجعهم. وفى الوقت نفسه تصادف دعوتهم هوى فى النفوس المريضة.

فإذا لم يغير المسئولون قوانين الحرية، ويضعوا تشريعًا يحمى الآداب كما يحددها الدين، وإذا لم تقف الجهات الأخرى فى ميدان الإعلام عند حدها - ضاعت الجهود التى تقوم بها العناصر الأخرى للمقاومة.

ولنذكر هنا قول الله سبحانه: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقول النبى ﷺ: «مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها، إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا نستقى منه، ولا نؤذى من فوقنا!! فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، ولو أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا» رواه البخارى عن النعمان بن بشير.

والواجب على كل إنسان أن يحترم من يراها محجبة، ويظهر ذلك بالمحافظة عليها وإكرامها فى الطريق وفى وسائل الانتقال، وفى الأماكن والمجتمعات التى تغشاها لحاجتها، كما يجب عليه أن يعبر للسافرة عن امتعاضه منها، بعدم إكرامه لها فى مثل هذه المواطن، ففى مسلكه هذا تشجيع للأولى على استمرارها فى تحفظها، وإغراء للثانية على التفكير فى العدول عن سلوكها.

ولتمام الفائدة فى معرفة وسائل العلاج يمكن الرجوع إلى البحث الخاص بمنهج الإسلام فى علاج المشكلات الاجتماعية، فى كتابى «توجيهات دينية واجتماعية».

* * *

الفصل الخامس
رد الشبه الواردة على الحجاب

يحاول دعاة السفور أن يبرروه ليجعلوه تقليداً مستساغًا إن كانت نظرتهم إليه نظرة نابعة من وحى التقاليد والعادات، فهم يريدون أن يخرجوا على المألوف تأثرًا بالغرب أو ضعفًا فى التدين أو لغير ذلك من الأسباب التى مرت، كما يحاول البعض أن يلتمسوا له مستنداً من الشرع إن كانت نظرتهم إليه نظرة روعى فيها الدين الغالب والذى يعد الخروج عليه شذوذا. إنهم يلجئون أحيانًا إلى قواعد نفسية يقيمون عليها شبههم، وإلى سفسطات فكرية لا يقرها دين.

وأكثر من يورد هذه الشبه لا يؤمنون بعدالة التشريع، فلو أنهم كانوا مؤمنين بالله حقًا لقبلوا تشريعات الله فى القرآن والسنة، وما أوردوا عليها اعتراضات تبرر خروجهم عليها. ومن هنا يمكن أن نقول لهؤلاء. بصفة إجمالية: إن كنتم مؤمنين بصدق القرآن والسنة وعدالة ما فيهما من تشريع، فإن هذه السفسطات لا تغير من الحكم شيئًا فالحجاب مفروض لا جدال فيه، وسواء اقتنعتم بالتعليلات وشرح حكمة التشريع أم لم تقتنعوا فإن الحكم ثابت، وجهلكم بالحكمة لا يغير من واقع الحكم ولا من واقع الحكمة.

وإن كنتم غير مؤمنين بما فى القرآن والسنة، فإن الجدال معكم لا يجدى، فإن العلماء ليسوا هم المشرعين للحجاب، وإنما نصوص الدين هى التي شرعته، وما عليهم إلا البيان والشرح والتبليغ. ونقول لهؤلاء ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[النساء: ٦٥]. فالذى يفصل فى النزاع هو حكم الله، ولا بد للمؤمن من قبوله واطمئنان نفسه به اطمئنانًا كاملاً. فهل الذين يوردون هذه الشبه مؤمنون؟ المؤسف أنهم يحملون أسماء إسلامية، ويرددون شبه سادتهم المبشرين والمستشرقين.

ونحن إذ نورد صوراً من شبههم فإنما نعرضها لبيان ضلالهم وتضليلهم، وأن فكرهم غير مستقيم حين وجهوا هذه الشبه.

وقد وردت إلى مجلة منبر الإسلام عدد ذى القعدة ١٣٩١هـ بعض هذه الشبه، ونوردها مع الجواب عليها فيما يلى:

١ – قالوا: إن المرأة ما دامت جادة فى معاملتها ومؤدبة لا تؤذى أحداً، فإن الزى الشرعى ليس ضرورياً. والجواب:

إن هذا القول متناقض مع نفسه، فإن الجدية فى العمل تلزمها الحشمة والانصراف عن الزخرف إلى الجوهر، وكما يجب عليها أن تكون مؤدبة فى كلامها وفى عملها يجب عليها أن تكون مؤدبة فى زيها، فكل ذلك مأمور به من الله. وهذا التكامل فى اتباع الأوامر قولاً وعملاً، سلوكاً وزياً، يشير إليه قول الله ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ فلا يجوز أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض. وتنفيذ بعض هذه الأوامر لا يعفى من المسئولية عن التقصير فى بعضها الآخر.

على أن ادعاء أنها لا تؤذى أحداً غير مقبول على إطلاقه، فإنها تؤذى شعور الغيورين على الأخلاق، وتزين الفتنة لأرباب الهوى. وهذا التزيين له آثاره الكثيرة على الشخص نفسه وعلى أسرته وعلى المجتمع وعلى العمل الذى يقوم به فى هذا الجو. فالإيذاء موجود لا مفر منه.

٢ – قالوا: إن الظروف الحاضرة من مباشرة العمل والزحام فى المواصلات تجعل الزى الشرعى معوقاً عن العمل وموجباً للسخرية: والجواب:

إن المرأة تغير من زيها كثيراً فى فترات زمنية متقاربة تجارى به «المودات» السريعة، ما بين طويل وقصير، وما بين «جيب وبنطلون». وما كان الطويل أبداً مانعاً لها من الذهاب إلى عملها، فهو إن لفت النظر وقتاً قصيراً – لأنه جديد – سيصير مألوفاً غير داع إلى النقد والسخرية. ولو أن لابسات البنطلون أطلن

« الجاكيت » لتوارى مفاتنهن، وسترن أذرعهن ورءوسهن لكان ذلك زيًا شرعيًا، أو قريبًا منه إلى حد كبير، ولا يكون مثارًا للسخرية بحال.

والمرأة إذا كانت بهذا الزى المتكامل فى الشتاء لا يعيبها أحد أبدًا، لأن الظروف الجوية تدعو إلى ذلك، لكنها تتملص منه فى الصيف لا بدافع الحر، ولكن بدافع آخر هى أعلم به.

٣ – قالوا: إن الدين يسر، ومن اليسر أنه لا يلزمها بزى قديم، حتى لا تتعقد نفسها، فيكون الضرر، والضرر يأباه الدين. والجواب:

إن هذا القول سفسطائى، فإن من يسر الدين أن أباح للمرأة أن تعمل وتخرج، ومن يسره أنه حاطها بالرعاية لتتمكن من أداء مهمتها فى أمن وطمأنينة، فمنع عنها أذى الغير، ومن الواجب عليها إزاء ذلك أن تمنع أذاها عن الغير عن طريق الغريزة الجنسية، التى لا ينكر أحد خطرها على السلوك الفردى والجماعى. وقد كرمها الله بهذا الزى الكامل الذى يجب قبوله بمقتضى الإيمان الذى يثق فى تشريع الله.

والمرأة هى التى تسبب لنفسها العقد النفسية التى يحلو للكثير أن يتحدث عنها. وذلك بإيقاع نفسها تحت تأثير كلام الناس الذين لا يريدون إلا مصلحة أنفسهم. وهل نسيت المرأة كلام رسول الله ﷺ فى الموازنة بين رضاء الله فى اتباع أوامره، وبين رضاء الناس فيما يشتهون؟ لقد ورد فى الحديث الشريف « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس. ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » رواه الترمذى عن عائشة. وروى ابن حبان فى صحيحه نحوه مرفوعًا[1].

والمرأة إذا تمسكت بتقاليدها، ووقفت عند حدود دينها، غير عابئة بما يقول الناس، امرأة دلت على أن لها شخصية قوية، انتصرت إرادتها على شهواتها. وستحل من نفوس الناس محل التقدير والاحترام. أما المذبذبة التى تجارى كل هوى وكل عصر فهى امرأة فاقدة الشخصية، لا يطمئن إليها العاقلون.

---

(١) الترغيب والترهيب ج٣ ص٧٨.

وهل يجوز للمرأة التى تحب أن تجارى العصر، وتهرب من سخرية الناس لتمسكها بالقديم، هل يجوز لها أن تفرط فى عرضها، وتندس فى وسط المجتمع الصاخب، تفعل كل ما يحلو لها، حتى تروق فى أعين الناس وتبعد عن نفسها الأزمات؟

إن الآداب الموضوعة للسلوك ليست ضرراً، ولا تؤدى إلى ضرر، وإنما هى تنظيم يساعد على الاستقرار والأمن، ولو أطلقت الحرية للناس لفسد المجتمع، ولما كانت هناك حاجة إلى قوانين، ولا إلى رسالات، ولترك الناس يعيشون كالبهائم، تسيرها الغرائز، وتقودها الشهوات.

٤ – قالوا: إن الزى الشرعى يحرم المرأة من التمتع بمباهج الحياة، والجواب:

إن هذا قول باطل، فهل التمتع بمباهج الحياة لا يكون إلا بالعرى وبذل العرض والتسفل إلى درك البهائم، كما يفعله زعماء هذه البدعة فى أوروبا من الوجوديين وغيرهم، الذين تعمر بهم نوادى العراة؟

لقد مرت مئات السنين على النساء المسلمات المحتشمات، وهن يتمتعن بطيبات الحياة وزينتها. فى أدب وكمال. وما كانت هناك رذائل فاشية بالقدر الذى فشت به الآن.

٥ – قالوا: إن بعض الأعمال التى تزاولها المرأة كاستقبال الشخصيات الزائرة، يقتضى زياً عصرياً لا يتناسب مع الزى الشرعى. والجواب:

إن هذا العمل لا يبرر الخروج على ما شرع الله، فهو الذى وضع الزى المناسب. والذى وضع الزى العصرى هو المجتمع، فيا ترى من الذى نطيعه؟ قال تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

إن مجالات العمل التى لا تتطلب زيًا كاشفًا واسعة وكثيرة، والقانون الوضعى يحمى العاملة فى حريتها فى اختيار ملابسها، وليس هناك اضطهاد أو فصل بسبب الزى أبدًا، فمن لا تصلح بزيها لهذا العمل تصلح لعمل آخر، والأمر أولاً وأخيراً هو مجاهدة هذه النفس فى التحمل والمصابرة، ومجاهدة المتحللين الذين يعيبون التمسك بالدين.

وإليك صوراً أخرى مما يردده الذين يزعمون أنهم مجددون مصلحون، وقد يكون فيها بعض التكرار لما سبق، أو ما يغنى عنه، لكن لا نعدم منها فائدة. لأنها صيغت بأساليب مختلفة.

١ – قال قائلهم : إن الحجاب يعوق المرأة عن التطور، وعن إسهامها فى خدمة المجتمع، لأنه لا يمكنها من التعلم ومزاولة العمل فى المجالات الحضارية.

ونقول لهؤلاء: إن الرجل يقوم بكل الخدمات التى تنهض بالمجتمع خارج المنزل، ولا يحتاج إلى جهود المرأة إلا عند عدم وجود من لا يصلح لها غيرها. أو كانت هى محتاجة إلى العمل، ومع ذلك فإن الحجاب لن يعوقها عن ذلك مطلقًا. فكم تعلمت نساء وبرزن وهن فى أدب واحتشام، وسيأتيك عدد كبير منهن فى الباب الخامس إن شاء الله.

وكذلك الأعمال الأخرى لا يمنع منها الحجاب أبدًا، اللهم إلا إذا أردتم بالأعمال الحضارية الرقص والسهر والحفلات والرحلات وما إليها، وهذه أمور لا يوافق عليها الدين أصلاً، فضلاً عن كونها تؤدى بحجاب أو سفور.

إن أصحاب هذه الشبهة يريدون بالأعمال الحضارية ما هو موجود عند الغرب، مع علم بالآثار الخطيرة المترتبة على خروج المرأة إلى هذه الميادين فى تحرر وسفور(١).

---

(١) لقد كان من فساد التنظيمات فى بعض البلاد الإسلامية أن تبجح بعض المنتسبين إليها بأنه كسر التقاليد وعلم بنات مدرسة (.....) الرقص وقدمن عروضاً شيقة أمام أولياء أمورهن، وتزعم هذه الحملة أمين الشباب بالوجه القبلى، الذى كون فرقة شعبية من ٦٥ فتاة وشاباً منهم ٢٠ من طالبات المدارس الثانوية ودار المعلمات «أهرام ٢٢ / ٩ / ١٩٦٧».

إن كشف المرأة لوجهها، وهو جائز عند بعض المذاهب كما تقدم قد يكون له مبرر فى خروج المرأة ومزاولتها للنشاط المتنوع المشروع، ولكن كشف الصدر والذراعين وما فوق الركبة ليس له مبرر مشروع أصلاً، بل وليس له مبرر معقول، لقد قالت إحدى هؤلاء: إن الفستان القصير يساعد على خفة الحركة، ونقول: إن المرأة الآن فى سنة ١٩٧٤ لبست البنطلون الطويل وزاولت به عملها وهى مسرورة به. وذهب عن ذهنها ملاءمته للعمل وعدم ملاءمته، وكان سرورها به من أجل أنه هو «المودة» والمرأة مغرمة بكل «مودة» وافقت العرف والعقل والدين أو لم توافق.

٢ – وقالت أخرى: إن كشف بعض أجزاء الجسم يناسب الجو الحار، والمرأة بطبيعة تكوينها تحس بالحرارة أكثر من الرجل، ونقول: هل كل المسلمات يعشن فى الأجواء الحارة، وهل النسوة السابقات المسلمات المحافظات على الملابس الطويلة وعشن فى الأجواء الحارة، استطعن العيش أو ضاقت بهن الحياة؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون تحايلاً على الدين والعرف الإسلامى لا مبرر له أبداً، على أننا نقول أيضاً: إن البنطلون الساتر والجاكيت السابغ الذى أغرمت به المرأة حديثًا يتنافى مع تعللات الداعيات إلى تقصير الملابس.

إن الأمر أخطر من التماس علل معقولة للخروج على الحجاب، الأمر هو الجرى وراء المودات الحديثة وملاحقة المرأة الغربية فى تحررها الذى أودى بكرامتها وضجت منه النساء العاقلات.

لقد مر تبجح بعض المنتسبين إلى التنظيمات التحررية بأنه خرج بالمرأة عن تقاليدها القديمة، وعلم بنات المدارس الرقص، وقدمن عروضًا شيقة أمام أولياء أمورهن. وكسر التقاليد التى حبست المرأة قرونًا طويلة. بئس ما فعلوا، وقاتلهم الله وقاتل غباءهم وفجورهم، وصدق رسول الله ﷺ «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخارى عن ابن مسعود.

٣ – قالوا: إن الحجاب طعن فى حق المرأة، لأنه أمارة على الشك فى قدرتها على الحفاظ على الشرف، وأمارة على ضعف شخصيتها وإرادتها أمام المغريات. ونقول:

إن الحجاب، كما شرع للمرأة، شرع للرجل، كل له منه ما يناسبه، فإذا شرع للنساء غض البصر وستر العورة شرع للرجال كذلك أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم. وأمر الإسلام كلا منهما بعدم الاختلاط وتعاطى أسباب الفجور، فالحجاب ليس اتهاماً للمرأة، بل هو أدب خلقى للرجل والمرأة على السواء، فلكل من الجنسين غرائزه وشهواته، فهل يمكن للرجل إذن أن يقول: إن تحريم الإسلام نظرى إلى المرأة أو خلوتى بها طعن فى عفتى وخلقى وعزيمتى؟ إن الحجاب احتياط، وليس كل الرجال وكل النساء على خير دائماً، فهل وضع القفل على باب المنزل أو المتجر اتهام من صاحبه لكل الناس بأنهم لصوص؟. ووجود الشرطى هل هو دليل على أن كل الناس مجرمون؟ قال تعالى مبيناً أن الرجال ليسوا على درجة واحدة ﴿**فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**﴾ فالمتعرض للفتنة هو من فى قلبه سوء لخلوه من خوف الله وقوة الإرادة. ومما يدل على أن حكمة الحجاب هى مصلحة الطرفين قوله سبحانه: ﴿**ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ**﴾ وذلك تعليل للأمر بعدم كلام نساء النبى إلا من وراء حجاب.

كما قالوا: إن الحجاب أسر وذل للمرأة. ونقول لهم:

إن بعض الناس يستهجن نظم الحكومة، ويريدون العودة بحياتهم إلى الفوضى والهمجية، لأنهم يعدون القوانين أسراً وذلاً. على أن العقلاء يستهجنون السفور كما يستهجن غيرهم الحجاب، فبأى الاتجاهين نأخذ إن كنا نملك التشريع؟. إن الحجاب ليس ذلاً للمرأة، ولكنه تكريم لها، لأنه يبعد عنها التقلبات التى اصطلت المرأة نارها فى أوروبا، على ما علمت من موقف الرومان منها. فالمرأة المسلمة حفظت مدة ثلاثة عشر قرناً من كل الانقلابات التى مرت على نساء العالم.

٤ – قالوا: إن الحجاب فيه كبت للعواطف. فالعواطف إن لم تجد منفذاً للظهور، وهى ثائرة، أدت إلى عقد نفسية. فهم يدعون إلى السفور تنفيساً عن الغريزة، لأن مقاومة الطبيعة تغرى بانتقامها لنفسها بانحرافات تضر نفوس الناشئين وأجسامهم. ونقول لهؤلاء الفرويديين:

إن الإسلام أمر بالحجاب تعديلاً للغريزة وترويضًا لها، وما من شيء حرم إلا جعل الله له بدلاً من الحلال يحقق الإنسان فيه نشاطه، فليست المنافذ كلها أبدًا مسدودة على الغرائز، وإلا كان التشريع عبثًا لأنه لا يستطيع مساعدة الإنسان على تحقيق خلافته، فلكل محرم بديل من الحلال، والطريق الطبيعي لنشاط الغريزة الجنسية نشاطًا إيجابيًا منتجًا صحيحًا هو الزواج، وكما قال العلماء: إن الله حين حرم الربا لضررة في الاستغلال جعل له بديلاً من التجارة المشروعة التي تحقق الربح المعقول مع المحافظة على المعاني الإنسانية في المعاملات. وقال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فالإسلام بتشريع الحجاب يقف الغريزة عند حد الاعتدال، ويحافظ على وجود الميل الطبيعي بين الجنسين، لا يريد أن يميته ويقضي عليه تمامًا، ولا يريد أن يقويه بشكل يدعو إلى الخطر. فإذا كانت مداومة الاختلاط تضعف ميول الجنسين بعضهما نحو بعض، كما يقول الفرويديون، فإن الإسلام لا يريد هذا الإضعاف.

على أن ادعاءكم أن الاختلاط يضعف الميول الجنسية مردود، فلماذا لا يكون هو من عوامل قوة الميل وشططه واندفاعه بأخطاره الجسيمة، خصوصًا في فترة الشباب؟ إن الواقع خير دليل على ذلك. ومهما يكن من شيء فإن الإسلام لا يرى الخير في إضعاف الغريزة ولا في تقويتها على الإطلاق، فلكل مجال، إنه يدعو إلى ترويضها وإضعافها عندما لا يتيسر فسح المجال لها بالزواج، فأوصى غير القادرين عليه بالصيام، وهو لا يقف حجر عثرة في سبيل تقويتها بين المتزوجين لتحسين النسل واستمتاعهن بنعمة الله. والحجاب من عوامل إضعاف الميل الجنسي أو تعديله بصفة مؤقتة عند تعرض المرأة لرؤية الرجال.

وفي بعض الأحيان يكون الاختلاط الدائم سببًا في خلق رجال فيهم عنة، وليس ذلك من مصلحة النوع الإنساني. ذكر «كولبين» أن العلاقات الجنسية باردة جدًا في قبائل «الهوتنتوت» وذلك لاختلاطهم المتواصل. كما ذكر الدكتور

« ميتشل » أن الزواج لا أهمية له فى قبائل « الجونكين ». فالرجل عندهم يهتم بحصد سنبلة قمح أكثر من اهتمامه باقتناء امرأة.

٥ – قال بعضهم : إن الحجاب يورث توقد الشهوة، لأن كل ممنوع مرغوب فيه. وقد سبق فى بيان حكمة مشروعيته أنه يغرى بالعمل على تكوين الأسر وحياة الاستقرار، والاختلاط يخفف من حدة الشهوة. ونقول: إن تلطيف الحدة بالاختلاط مظنة لأخطار كبيرة، والإسلام جعل لتوقد الشهوة ملطفًا لا يكون وراءه خطر، وهو الصوم كما سبق بيانه، أو الزواج المبكر، أو الانصراف إلى ميادين الجمال المنبعث فى الكون ليشبع الإنسان فيه غريزته بمثل الرسم والشعر وما إليهما، وهو مظهر من مظاهر الاستعفاف الذى يشير إليه قوله تعالى: ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النور: ٣٣].

٦ – قالوا : إن قيمة العفيف من الجنسين تظهر عند الاختلاط، فمجاهدة النفس حينئذ تكون لها منزلتها فى المثوبة، فليكن هناك اختلاط، وليكن من الرجل الأدب حتى يكون له اختيار فى تعففه، وليكون ممن جاء فيهم « من عشق فعف فمات فهو شهيد » ونقول:

أليس هناك ما يعرف فيه قدر الرجل أو المرأة من العفة إلا هذا الامتحان الخطير، الذى أثبتت التجربة أن ضرره أكبر من نفعه، فالغالب فى الاختلاط هو الفساد، ورحمة الله تقتضى سد هذا الباب، فهو من قبيل سد الذرائع، والحكم هو لغالب الناس لا للقلة منهم، وليس من الحكمة أن نهيئ للإنسان أسباب الشر، ثم نقول له إياك أن تقع فيه، بل الحكمة أن نبعده عنه ونسد عليه بابه.

ذكرت كتب الأدب أن معاوية بن أبى سفيان قال لعمرو بن العاص: أينا أدهى من الآخر؟ فقال عمرو: أنا، فقال معاوية: لماذا؟ قال: لأننى إذا وقعت فى الشر عرفت كيف أتخلص منه. فقال معاوية، بل أنا أدهى منك، لأننى أعرف الشر فلا أقع فيه. نعم إن البعد عن الشر يحقق النجاة منه، أما الوقوع فيه فالنجاة منه مظنونة، والعاقل يسير فى حياته باليقين لا بالظن. وذلك تقدير لقيمة الوقاية، ودرهم من وقاية خير من قنطار من علاج.

على أن القول المذكور الذى يجعل المتعفف فى عشقه شهيداً إذا مات قول غير صحيح النسبة إلى النبى ﷺ. بل هو موضوع، قاله ابن القيم فى كتابه زاد المعاد « ج٣ ص١٥٤ » وبين أنه لا يصح أن يكون من كلام الرسول ﷺ فالشهادة درجة عالية وهى نوعان، عامة وخاصة، فالخاصة هى الشهادة فى سبيل الله، والعامة خمس مذكورة فى الصحيح ليس العشق واحداً منها. وكيف يكون العشق الذى هو شرك فى المحبة وفراغ عن الله وتمليك القلب والروح والحب لغيره تنال به درجة الشهادة؟ هذا من المحال. إلى أن قال: فلو كان إسناد هذا الحديث كالشمس كان غلطاً ووهماً ولا يحفظ عن رسول الله ﷺ لفظ العشق فى حديث صحيح ألبتة. ثم إن العشق منه حلال ومنه حرام، فكيف يظن بالنبى ﷺ أنه يحكم على كل عاشق يكتم ويعف بأنه شهيد، فترى من يعشق امرأة غيره، أو يعشق المردان والبغايا ينال بعشقه درجة الشهداء. وقد أفاض ابن القيم فى بيان كذب هذا الحديث من جهة الإسناد كما كذبه من جهة المتن. ومن أراد أن يستقصى موضوعه فليرجع إلى كتابه المذكور.

٧ – قالوا: إن الاختلاط يورث توازن الحياة الاجتماعية، وذلك بتعديل طبائع الجنسين، فعن طريقه تسرى بعض الرقة إلى نفس الرجل، وبعض الجد إلى نفس المرأة، وفى ذلك تقريب للشقة. ويرد عليهم: بأن التلطيف المزعوم تصنع مؤقت لا حقيقة له دائماً، فالغريزة هى الغريزة، والميل إلى الجنس هو الميل، لا تقضى عليه التصنعات، فما بالذات لا يتخلف، وذلك أشبه ما يكون بحال الخطيبين فى فترة الخطبة على النحو المعروف الآن، فكل سلوكهما أو أكثره تصنع لا يخبر عن الحقيقة الكامنة فى النفس. على أنه لو كان هناك تلطيف فإن الأخطار الكثيرة من وراء الاختلاط تبرر خطره ومنعه دون اعتبار لفائدة أو فوائد قليلة يجرها وراءه، فالعبرة فى الحكم على الشىء بما يغلب من آثاره ونتائجه، وإن كان فى كل شىء خير وشر، لكن النسبة بينهما هى التى تحدد الحكم على الشىء.

٨ – قالوا: إن الاختلاط فى العمل بوجه خاص يورث همة فى نفس كل من الجنسين، وقد جربت ذلك «كاترين» قيصرة روسيا، كما تقدمت الإشارة إليه، فقد شكت كسل الناس وتباطؤهم، فأرشدت إلى تجربة اختلاط الجنسين، فتحرك الشبان ونهضوا للعمل وزاد دخل الدولة. وقد حذت تركيا حذوها. ويرد على ذلك:

بأن الهمة المكتسبة بما وراءها من فائدة مادية لا تعدل الخسارة الجسيمة التى تترتب على ا لاختلاط وتظهر فى ميادين أخرى بشكل واضح. فهل نكسب شيئًا لنخسر أشياء؟ لقد شكا رجال أمريكا من سفور المرأة وارتدائها الملابس القصيرة، ورأت أن انصراف الشبان الذين يعملون معهن زاد إلى الفتيات وأهملوا الواجبات.

٩ – قالوا: إن المرأة المتحجبة يشوه الحجاب جمالها، وإذا مشت فى الطريق تعثرت لحيائها من الرجل فلا بد أن نعطيها الثقة فى نفسها حتى لا تتعرض لمثل هذه المآزق. ونقول:

إن مثل هذه الترهات جديرة بألا يرد عليها، ولكن السكوت عنها قد يعطيها عند السذج صفة الجدية والصدق، وأخطار السفور أكبر من أن تراعى لأجلها أمثال هذه التوافه، إن المرأة المسلمة فى غالب أحوالها مستقرة فى بيتها، أو أن الأصل فى حياتها مباشرة عملها فى البيت لا التجول فى الشوارع حتى يراها الناس، وهل يريد هؤلاء للمرأة أن تمشى كالرجل فى استخفاف أو تحد للناس، كما هو حادث الآن؟ إن الرجل يخشى كل الخشية أن يكون فى أى تصرف من تصرفاته شائبة من الشوائب تعدها المرأة جارحة لكرامتها، فهو يحاول أن ينزوى بعيدًا عن النساء فى الطرقات والاجتماعات، باديًا عليه الحياء والخجل إن كانت عنده بقية من دين، أما المرأة فهى تمشى وتجلس فى غير حياء ولا اكتراث، لا تفسح الطريق لرجل، بل ترغمه على أن يفسح هو لها، ولا تحب الجلوس إلا فى صدر المجالس تحديًا للناس، بل تزحمهم بنفسها فيما يخصص

لهم، وذلك كله أثر من آثار عدم الحياء الذى جاء فيه الحديث المذكور سابقًا «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخارى عن ابن مسعود[1].

١٠- قالوا أيضًا: لماذا لا تساوون المرأة بالرجل فتبيحوا لها كشف أجزاء كبيرة من جسمها مثله؟

وهذا الكلام فى مقابل ما قاله قاسم أمين فى كتابه «تحرير المرأة»: لماذا لا نأمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء خوف الفتنة عليهن؟ ونقول لهؤلاء:

إن السعى والعمل وكشف الجسم فى أكثر مواضعه للرجال. أما النساء فالأصل لهن الاستقرار فى البيوت. فإن خرجن فخروجهن لشىء غير ما هو لهن، أو لضرورة تقضى بذلك. فالأصل للرجل هو الكفاح خارج البيت فى الدنيا العريضة ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ [الملك: ١٥]. والأصل للمرأة هو ملازمة البيت لإدارته، ومعاونة الرجل على مواصلة كفاحه. ولعل مما يشير إلى أن مهمة الرجل الأولى هى الكدح من أجل المرأة والأولاد قوله تعالى لآدم وحواء: ﴿ **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** ﴾ [طه: ١١٧]. فهما سيخرجان من الجنة حيث لا تعب فيها من أجل العيش، إلى الأرض حيث التعب الذى يقع على كاهل الرجل وحده. فروعى الفرق فى الحجاب بينهما على هذا الأساس.

١١- قالوا: إن المتحجبة لا تميز صفات الرجل، وهى ترضى بإشباع غريزتها مع أى رجل يتقدم إليها، أما التى تختلط وتزداد خبرة بالحياة وبالرجال عن هذا الطريق فإنها لا ترضى بالزواج إلا بعد موازنة بين صفات من يتقدمون إليها، وتختار الأصلح. ونقول لأصحاب هذا القول:

إن الاختيار له قواعده المشروعة فى الخطبة، وهى بنظامها المعروف، كفيلة بتبين وجوه الكمال فى كل من الرجل والمرأة.

---

(١) رياض الصالحين ٦٦٧.

١٢- تمسح أيضًا دعاة السفور بالدين، وأوردوا حادث الفضل بن العباس عندما كان ينظر إلى المرأة فى الحج وهو راكب خلف النبى ﷺ، حيث لم يأمر المرأة بستر وجهها، بل صرف نظر الفضل عنها، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث.

١٣- كما قالوا أيضًا: إن الحجاب خاص بنساء النبى ﷺ. وقد تقدم الحديث عن ذلك، فلا داعى لإعادته.

وبعد، فإن دعاة السفور قوم يميلون مع الهوى، ويستجيبون بسخاء لنداء الغريزة الجنسية، وقد تطوروا فى دعوتهم، وتمادوا فى سفسطتهم حتى بلغوا الذروة فى الضلال والتضليل، فمالوا إلى مذهب الوجوديين، وظهروا بمظهر «الهيبى» ودعوا إلى العرى والرجوع بالإنسان إلى طبيعته الأولى، بل إلى حياة الحيوان والبهائم، وإن كانوا لا يصرحون بذلك بل يقولون: إن الغرض هو الرجوع إلى الإحساس بجمال الطبيعة وما يحيط بها، كما يقولون: إن هناك أعباء ومشكلات نفسية ناتجة من «روتين» الحياة، وهى تزول تدريجيًا عند الاستسلام إلى الطبيعة بالأجسام العارية.

إن هؤلاء الناس فى سخافة تفكيرهم ينسون أن الطبيعة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها تستحى من كشف العورة، وقد قص القرآن الكريم علينا خبر آدم وحواء عندما بدت سوآتهما فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فهناك إحساس أولى باستقباح كشف العورة، والله سبحانه منَّ علينا بالملابس التى هيأ لها الأسباب الكثيرة، وقال فى حكمتها ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا**﴾ [سورة الأعراف: ٢٦].

إن هذا التفكير السخيف لا ينبغى أن يكون فى عصر الرقى العلمى والحضارى، إن هؤلاء الناس لهم غرائب تثير الضحك، وشر المصائب ما يضحك، وليس من معتصم غير الدين الذى يريد الله به الخير للناس جميعًا ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران ١٠١].

يقول الأستاذ على الجندى فى قطوفه:

قل لحسناء زهاها الـ ... حسن أن تلزم خدرا
تتثنى من دلال ... بانة تحمل بدرا
زهرة تعبق طيبا ... أينما سارت وعطرا
لا تبالى الحر إن كا ... ن ولا تَحْفَل قُرَّا
جسمها أمسى نهابا ... لعيون الناس طرا
شف عنه ما عليه ... فبدا بطنا وظهرا
حجّبي الحسن وصونيـ ... ـه يزده الصون قدرا
فإذا رابك قولى ... وحسبت الخير شرا
فاستترى ساقك عنا ... حسبنا الصدر المعرَّى

القر بضم القاف أى برد اليوم. والقر بالفتح وصف لليوم البارد، فيقال: هذا يوم قر.

والنهاب: بكسر النون جمع نهب بفتحها، والنهب: هو الغنيمة. وتحفل: تبالى والفعل يتعدى بنفسه.

ويقول أمين ناصر الدين:

قل لمن بعد حجاب سفرت ... أبهذا يأمر الغيدَ الشرف
أسفورا والحيا يحظره ... وتقى الله وآداب السلف
ليست المرأة إلا درة ... أيكون الدر إلا فى الصدف؟(١)

مذهب العرى:

إن العرى منتشر فى جهات نائية من شمالى ألمانيا على شواطئ البلطيق فى شبه مستعمرات، يعتنق أهلها هذا المذهب، يسيرون عرايا، رجالاً ونساء، كما ولدتهم أمهاتهم، دون خجل. ويقول بعض زعمائهم: إن الله خلق الإنسان

(١) مجلة الأزهر أول صفر ١٣٧٤هـ.

عرياناً، ولا يحصل فساد بسبب هذا العرى، كما أن الأولين لم يفسدهم العرى، والتعود عليه يميت الشهوة الجنسية أو يضعفها. وبدل أن يهتم الناس بالزينة والملابس ندعوهم ليهتموا بجمال الجسم وصحته.

ويقولون: إن الملابس ستار خداع يوجد الفوارق والطبقات بين الناس، لكن الأجساد حين تكون عارية فإنها تكون موحدة الطبيعة، فالعرى يحقق المساواة[1].

هكذا يفلسفون العرى ويدعون إليه، وقد تنطلى هذه السفسطة على السذج من الناس وبخاصة الشباب. وجاء فى مجلة آخر ساعة «يولية ١٩٥٠» ما ملخصه:

بلغ عدد العراة فى ألمانيا قبل الحرب سنة ١٩٣٥ نحو خمسة ملايين، لأن هتلر كان يؤيد مذهبهم، وفى إنجلترا حملة قوية لتشجيع مذهب العراة، فهناك جمعية حمامات الشمس البريطانية، تضم نوادى كثيرة للعراة (يقال: إن فى لندن ٣٧ ناديًا، بلغ عدد أعضائها ٥٠ ألفًا). وفى أمريكا ٥٠ جمعية للعراة ونواد كثيرة تتبعها، وفى بلجيكا منظمتان تكافحان للوصول إلى التأييد، هما «دى سبار»، «لايف أند صن» ولا يوجد فى فرنسا غير ١٢ جمعية للعراة، رحب بها كثير من الناس، ولا يوجد فى إيطاليا نواد، وذلك لنفوذ رجال الدين. وفى سويسرا ناد واحد للعراة اسمه «داى نيوزايت» وهو خاص بالأجانب فى البلاد. وفى هولندا مؤسستان، هما «زون أن ليفن»، «نيدر لاندنا توريزا بوند».

والعراة فى روسيا غير معروف حالهم، وأفريقيا نظيفة منها، إلا بعض نواد فى كينيا. وأفراد الشعوب العارية فى مجاهيل أفريقيا. وانتشرت النوادى فى استراليا ونيوزيلندة برغم جهود الحكومة فى قمع الإباحية. وفى الصين ناد واحد فى «هونج كونج». وفى الهند ثلاثة نواد.

---

(١) رحلات محمد ثابت وكتابه: بنات حواء.

وطريقة الاشتراك فى النوادى ليصبح المشترك عضواً عاملاً : تملأ استمارة تذكر فيها الأسباب الدافعة إلى الاشتراك . والخطوة الثانية هى دعوة العضو الجديد إلى زيارة أحد النوادى والترحيب به وإكرامه، وذلك لحمله على اجتذاب عائلته، ويصحب العضو الجديد فى زياراته الأولى التمهيدية مرشد خاص مسئول عن توجيهه . وهناك إجراءات مشددة تتخذ ضد العضو الذى يشتبه فيه، ويظن السوء بالنادى .

وهذه النوادى أكثرها رجال . ولكن أقبل عليها النساء . والعقبة الكؤود لكل فرد يريد الانتماء إلى النادى هى الإجابة على هذا السؤال : كيف أظهر أمام الجميع عارياً؟ والجواب : لا تخف ولا ترتبك . اعتبر مسألة العرى شيئًا عاديًا جداً، وإذا انسجم العضو مع الباقين وجب عليه أن يستحم بأشعة الشمس وممارسة الألعاب الرياضية عارياً، على طريقة « هيبيز » التى تحتم أن يكون الكل عراة . وهم يفلسفون طريقتهم هذه ويقولون : إن التجرد من الملابس ليس دليلاً لاتهامنا بالوحشية، لأن للعرى غرضًا واحداً هو الرجوع إلى الإحساس بجمال الطبيعة وما يحيط بها .

وفى أهرام ٢٩ / ٨ / ١٩٥٤ برقية من فيينا فى ٢٨ منه، ملخصها أن المؤتمر الدولى الرابع للعراة الممثل فيه ١٢ دولة « الولايات المتحدة، فرنسا، إنجلترا، ألمانيا، سويسرا، هولندا، إيطاليا، كندا، النمسا، الدانمرك، البرتغال، بلجيكا » مكون من الرجال والنساء والأطفال، وانعقد فى جزيرة « دير » إحدى جزر نهر الدانوب قرب النمسا، وكان جدول الأعمال حافلاً بموضوعات البحث، كتشجيع الاستمتاع بالهواء والشمس وماء البحر . ولكن أسراب البعوض هجمت عليهم فأكرهتهم على ارتداء الملابس، وفروا إلى فيينا للاحتماء بها .

وفى أهرام ٢٣ / ٨ / ١٩٦٥ : نزلت فتاتان وشاب إلى الماء على شاطئ خليج سان فرنسيسكو عرايا تماماً . ولما اعتقلهم البوليس قالوا : إنهم أعضاء فى رابطة الحرية الجنسية .

لقد تطورت هذه الفلسفة الشيطانية للعرى ووصلت إلى ما عرف أخيراً باسم «الستريكنج» أى الجرى السريع أو المرور الخاطف كالبرق. وهى ظاهرة بدأت في أمريكا، قام بها ٤٥ طالباً فى جامعة كولومبيا، حيث تجمعوا بها على موعد سابق، وخلعوا ملابسهم، وانطلقوا مسرعين فى شوارع نيويورك، دون أن يوقفهم استهجان الناس، حتى وصلوا إلى كلية «برنارد» للبنات، محاولين إقناعهن بالمشاركة فى المسيرة السريعة، فلم يفلحوا. ثم انتقلت العدوى إلى أوروبا.

وقد حار المفكرون فى تعليل هذه الظاهرة، فقيل: إنها تبرم بالمجتمع وقيوده، أو بالثياب وحملها الثقيل، أو لجوء إلى الثورة على عدم استجابة المطالب بالطرق المشروعة وبالثورة المكشوفة...

ويقول الكاتبون: إن شباب بريطانيا الذين خلعوا ملابسهم فى حديقة «هايدبارك» ومن فعلوا ذلك فى «جلاسجو» أو «إيرلندا» كان فى ماضيهم صورة اسطورية للجرى فى الشوارع دون ساتر. إذ تحكى دائرة المعارف البريطانية أن «ليدى غوديفا» التى ولدت سنة ١٠٤٠م وتوفيت ١٠٨٠م امتطت جواداً أبيض وطافت شوارع بلدة «كوفنترى» عارية تماماً، لا يستر جسمها الجميل إلا شعرها الطويل، وكان ذلك احتجاجاً على إرهاق زوجها «إيرل أوف ميرسيا» أهل البلد بالضرائب، ولما لم يستجب لاحتجاجاتهم شاركتهم الثورة عليه، فاشترط هو لقبول احتجاجها أن تطوف على الجواد عارية. فوافقت، لكن بعد أن طلبت من الجميع أن يلزموا مساكنهم ويغلقوا نوافذها. ويقولون: إن الناس قد استجابوا، ما عدا واحداً عصى، فعمى بصره. وما زال الناس يحكون قصتها، ويتذكرونها عندما يمرون يومياً أمام تمثالها «مدام جوديفا»[١].

وهذه الأسطورة تذكرنا بضباعة التى طافت بالبيت عريانة، وأخلى المطاف من الرجال لها، وقد تقدمت فى مقدمة البحث.

---

(١) صلاح المقدسى فى مجلة الأسبوع العربى التى تصدر فى بيروت. أول أبريل ١٩٧٤م.

ونشر فى ملحق جريدة القبس الكويتية بتاريخ ٨ / ٤ / ١٩٧٤ صورة « ميشيل توماس » وابنتها الصغرى وصديقتها « كارين كلوزمن » يتجولن عاريات تمامًا فى حرم جامعة هاواى بأمريكا[١].

وفى جريدة الجمهورية العدد ١٠٧٨٨ بتاريخ ١٣ / ٧ / ١٩٨٣م بعنوان: ألمانيا خلعت ملابسها، الذى نشرته صحيفة (بيلد) الألمانية الغربية: إن حوالى ستة آلاف شخص كانوا يتنزهون أمس فى حديقة « ميونخ » خالعين كل ملابسهم، وفى الحدائق العامة والشواطئ كذلك عراة يمارسون هواية الجرى. وهذا ضد القانون. ولكن الحكومة لا تستطيع أن تفعل شيئًا لأنها تواجه خرقًا جماعيًا للقانون.

صور همجية فى العصر الحديث:

إلى جانب الصور الهمجية التى ذكرت عن الأسرة فى الجزء الأول أعرض الصور التالية:

جاء فى أهرام ٣١ / ١ / ١٩٥٤ أنه توجد فى غينيا الجديدة قبيلة تنتظم نسوة عاريات يعشن فى الغابات، ويعاملن الرجال معاملة بالغة العنف. ويبلغ عدد نساء تلك القبيلة آلافًا مؤلفة، وهن يقمن فى وادى الأدغال المظلم، ويحتقرن الجنس الخشن، ويلقين بالرجال فى الكهوف. ويقصدن إلى العمل عاريات تمامًا حتى من الثوب المصنوع من الحشائش الذى ترتديه القبائل الأخرى. وتحكم هذه القبيلة ملكة. وهى تسلم بضرورة الإبقاء على عدد معين من الرجال

---

(١) لا تفسير عندى لهذه الظاهرة الانحلالية إلا إصابة عقول الناس بلوثة من كثرة شرب الخمور والمخدرات، ومن انحلال الرابطة الأسرية التى لا يعرف فيها الولد طاعة لوالديه، ولا يهتم الوالدان بتربية الأولاد فإن المحيط ابتلعهم وتاهوا فيه ونسبتهم مشكوك فيها، وسهولة الحصول على المتعة الجنسية حتى كادت العفة لا تساوى شيئًا، والحياء من العرى لا ظل له. إلى جانب تفكك الروابط الاجتماعية، فليست هناك أسر أو جماعات ذات صلات قوية تحمل بعضها البعض على عدم الوقوع فى هذه المخازى. إلى جانب السعار المادى الذى جرف أمامه القيم الأدبية فى الأرض الأمريكية المرقعة من أجناس مختلفة، والتى لا يربط بينها إلا المادة والتسابق على المتع.

لحفظ النوع، إلا أنها تعاملهم معاملة العبيد. وقد كشف القناع عن هذه القبيلة في مؤتمر عقد بمدينة «بريتوريا» في جنوبي أفريقيا.

وفي أهرام ١٧/٧/١٩٥٣ عن برقية من نيودلهي في ١٦ منه: أعلنت الصحف الهندية أن الفلاحات في منطقة «بعلبا» التي أصابها الجفاف الشديد في شمال الهند يعملن في الحقول وهن عاريات تمامًا، وذلك لنيل رضاء إله المطر «دراندرا»، وبينما تقوم الزوجات بهذا العمل من أجل إرضاء إله المطر يقوم الرجال بسكب مياه نهر الجانج المقدسة على تماثيل الإله «شيفا» للغرض نفسه.

يقول محمد ثابت في رحلاته: إن الفتيات في اليابان تخدم النازلين في النزل، فتخلع ملابسهم، وتدلك أجسامهم في الحمام عرايا، وتلزم مسامرة الضيف حتى ينام، وكثيرًا ما يغتسل اليابانيون، نساء ورجالاً أمام بيوتهم في جانب الطريق، ولا ينظر أحد لصاحبه، خصوصًا الطبقات الفقيرة، وكانت الحمامات العمومية خليطًا بين الجنسين، فانتقدها الأجانب، ففصل بينهما، ويستنكر الأجانب رؤية أجسادهن عارية، ولكن يرونه أمرًا طبيعيًا، وهو في نظرهم مهدئ للميول الجنسية.

وعند حديثه عن «الجيشات المسليات» في اليابان يقول: في الحفلات الخاصة يرفع التكليف، ولا يشعر أحد بحرج، ويمتزج الجميع تمامًا، ولا ينظر الرجل إلى سميرة جاره، بل يقتصر على سميرته هو، ولا يخلو منهن مطعم أو مقهى. وهن يكثرن من الطلاء والزينة، وعمرهن ما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة. اهـ. وستأتي صور أكثر في الباب الخامس.

وذكر أيضًا في رحلته سنة ١٩٣٦م أن الإباحية مطلقة في جزر المحيط الهادي. وفي استراليا تدمن النساء على التدخين مع إباحية تجعلهن يسرن عرايا إلا من ساتر للعورة، كأن أزواجهن يستعرضن جسومهن أمام النساء، ولا سلطان للآباء على الفتيات، يسرعن إلى الاختلاط والمعاشرة دون تحرج، وليس هناك دور للفجور، فلا داعي لها ما دام الواحد يحصل على ما يريد دون رقيب. ويعزو عدم

الحياء إلى أن سكان استراليا نزلاء جدد من أماكن متفرقة، فلا سلطان لأحد على أحد «جولة فى ربوع استراليا ص٧٨».

وتحدث عن جزر «ساموا» بالمحيط الهادى ورقص النساء مع الرجال ونصف جسدهن الأعلى عار تمامًا «ص١٢٤». وعن «هوليود» وقال: إن النساء يظهرن فيها بزى الرجال، ويصعب تمييزهن عنهم. ومن الرجال من يدهن وجهه، ويحمر شفاهه، ويرخى شعره، ويلمع أظفاره، ويتبختر فى مشيته كالآنسة، وهى محط المجون العالمى «ص١٤٤».

ويقول عنهن أيضًا: عند ركوب الباخرة تغازل الآنسات الفتيان، ويكون التقبيل والزغزغة والاحتضان وما فوق ذلك. وهو شىء عادى عندهن. حتى أن الأمهات والآباء يساعدون بناتهم عليه، وكثير من الفتيات كن يسرن عرايا دون حياء، ويسخرن ممن يغض الطرف عنهن «ص١٤٩».

ويتحدث عن نساء نيويورك بمثل ذلك «ص٢٤٤». ويقول عن مدينة «كانو» فى كتابه الذى طبع سنة ١٩٤٦: أن نساءها فيهن مسحة جمال، خصوصًا العذارى من الغانيات، وهن يلبسن الأردية التى تغطى الجسم تحت الثديين، والصدر كله عار يلفت النظر، خصوصًا إذا طلت وجهها بالبودرة. وأما المتزوجات فأرديتهن تغطى الجسم كله. والغيرة على النساء فاترة جدًا عند الرجال. ونسبة العفاف قليلة، خصوصًا عند غير المتزوجات، فالفتاة تصادق من تشاء.

وجاء فى أهرام ١١/٥/١٩٦٤ من شاطئ ميامى بأمريكا، زواج سيسى داوسون (١٦ سنة) على «شارلزمورو» (٢٣ سنة) وهى ترتدى غلالة رقيقة تغطى جسمها حتى أصابع قدميها، والعريس عار تمامًا. وحضر الحفل ٧٢ مدعوًا من العراة، ليس فيهم مستور إلا المحامى الذى سجل مراسيم العقد.

هذه عدة صور قدمتها لك من أرجاء العالم كافة، لتلقى بها نظرة على فكرة الناس عن الزينة والملابس وصلة ذلك بالجنس، ترى منها أن الإسلام خير دين وخير نظام وضع لقيادة البشرية إلى الخير.

* * *